

محمّد الناصر النّفزاوي

المتشابهون

رواية

«نحن متشابّهون يا شفروت.
ولا يمكن للواحد منا أن يقتل صاحبه إلا خطأ»

(1)

مرّ ما يقارب الساعتين على آخر تصفيرة للمعمل عندما دخل الرّجل المنزل
الواطئ ..

في العادة، في كلّ صباح، صيفا وشتاء، ومنذ خمس سنوات يخرج مع الخامسة
والنّصف صباحا إلى المقهى القريب يتجمّع فيه العمّال عشرات يحتسون قهوة الصّباح
تقدّما لأوّل سيجارة صباحيّة وهم يتناقلون أخبار اللّيلة الماضية ثمّ يمتطون درّاجاتهم
ويتوجّهون إلى المصنع القريب في رتابة آليّة. لقد وحّد بينهم العرق والغبار. وبالرّغم
من أنّ أغلبهم كان يستفيق متعبا بعد كلّ سهرة خمريّة نهاية الشّهر خاصّة، فمن الصّعب
أن يختفي ذلك النّشاط الذي يميّزهم باعتبارهم جماعة موحّدة تستمدّ نفسها من
الوجود الجمعي. كما أنّ فقدان الاهتمامات الخاصّة بفئات اجتماعيّة أخرى لا يؤثّر في
نوع الحياة التي يحيون فإن يمضي بعض المثقفين أوقاتهم في غزل المؤخّرات والبحث
في ميتافيزيقا العلل وأن يتجمّع فريق من العمّال للرّهان حول نتائج الفريق القومي
التونسي أمران لا يمكن أن يضيفا صفة تفضيليّة على أحد الطرفين .

تصدّت له زوجته في صمت بينما أطرق هو مدّة قبل أن يرفع إليها رأسه فيطرق من
جديد. وانحنت المرأة عليه قليلا وهي تهمس :

- لا بأس .. لا تضع شيئا في قلبك ..

فنهرا بصوت ضعيف محاولا إبعادها عنه .. كان قويّ البنية لا يظهر عليه سوى
بعض الشحوب يتبدّى في وجهه كلّما رفعه ..

- هاتي شربة ماء.

أسرعت المرأة إلى جرّة في ركن البيت وعادت بإناء كبير. وبدت شفّته وهو يرفع رأسه جافتين مشققتين يغطيها شيء كالطلاء الأبيض. وأخذت عائشة تتلهّى بالعقد القديم في جيدها دون أن تنظر إليه.

- هذا رابع يوم.. بدأت أياس.. إنها أوّل مرّة أفقد فيها الثقة بجسدي.. عندما أرى العمّال يهرعون إلى المعمل في الصّباح أتقوى على نفسي.. ولا أمشي مائة متر حتّى أحس أنّي مشرف على السّقوط..

وتهالك فوق حصير نسلت جوانبه من دون أن يرفع رأسه :

- ماذا يمكن أن يكون مصدر هذا التعب..؟

وفجأة تخلّت عائشة عن وجومها

- السكر.. الدّخان..

فنهرها ثانية ثمّ همس

- لا تقولي هذا يا امرأة..

- إذن ماذا ؟

- الله أعلم.. إنّ كلّ النّاس مثلي في هذا الحي.. فلم لم يحدث لأحدهم ما حدث لي..؟

وتفطن إلى أنّه وحيد فحوّل بتعب نظره في أركان الغرفة. وفي ركن مظلم لمح عائشة ملتصقة بالحائط ورأسها بين يديها.

(2)

تتوسّط حانة (بوسن) منازل الحي الواطئة. وبالرّغم من وجود مسجد في الحي فإنّه لم يحدث حتّى في أيّام الأعياد الدّينيّة أن فاق المسجد هذه الحانة إقبالا. فمع المساء تزحف جموع العمّال والعاطلين وبائعي البيض من مجاهل الحيّ إلى حانة (بوسن) يعبّون من الجعة عبّاء، حتّى إذا ما أفلسوا وأعياهم الصّخب تفرّق البعض في الخلاء يكملون السّهرة على ضوء القمر وانصرف البعض الآخر إلى زوجاتهم يهرقون فيهنّ عنفهم مثنى وثلاث ورباع وسط جوّ من الشّراسة والعريضة.. والنّاس هنا لا

يطلبون كثير شيء ، مزيدا من الجعة وبعض القوت وامرأة ..والرجل السّاهر على توفير بعض هذه الضّروريات له عندهم من المقام ما ليس لأحد، رغم ما يدور حوله من أساطير غراميّة وهو الذي لا يرتبط في النهار بعمل ويعرف دخائل كلّ من يدخل حانوته، كيف تزوّج وكيف طلق وحتّى كيف يبيت مع زوجته، ورغم كلّ ما يحدث دورياً من إغلاق محلّه وإعادة فتحه لأسباب كثيرا ما تبقى مجهولة .

امتلاً المحلّ حتّى لم يبق فيه موضع قدم .ومن لم يجد مكانا في الدّاخل جلس خارج الحانوت فتكوّنت حلقات من السكارى حرّمت المرور في هذه الجهة على المحتشمات من النساء .وكان (بوسن) ينتقل بين حرفائه محدّثا هذا مستقبلا ذاك، مسفرا عن أسنان هدتها (البوخة) تلمع بينها ضرس مذهّبة .وانتهى إلى جمع من العمال فسلم عليهم .

- أين محمد ؟ غياب طويل ..خمسة أيام ..
- ولن يأتي هذه الليلة ..لقد رأيتّه ..الرجل مريض ..

فلم يبد على الخمار أنّه فهم
- بجسمه ذاك !

وانتقل إلى غيرهم وهو يصيح

- سفروت ..سفروت ..أين أنت أيها الكلب ؟

فلم أجد بدّا من أن أضع حدّا لصياحه فتخلّيت عن كأس جعة كان قدمها لي أحد الأصدقاء ..

- أين كنت يا سيد ؟ وتقول أنّك أعظم من هذه المهنة ..وتتفلسف عندما تجد بشراً ساذجاً لا يعرف من أي طينة صنعت ..لا تشرب ما يقدّم إليك ..ان هذا آخر تحذير إن كنت تودّ أن تريح خمسمائة ملّيم من (بوسن الحقير) كما تصفني في غيابي .
وصمت فجأة وهو يلّمح (سي صالح) الشرطي يدخل الحانوت وأسفر فمه عن ابتسامة عريضة مصنوعة كضرسه المذهّبة وصاح
- أهلا .. أهلا ..شرفتنا يا سي صالح ..تشرب الليلة على حسابي ..هذه المرة لا بد أن تقبل ..

وأخذ من ذراعه وسار به نحو صندوق شاغر في ركن الحانوت فتبعتهما وكأنّ شيئاً لم يكن وحاولت أن أسرع بفتح قارورة لسي صالح حتّى أذهب ما علق بخاطر عرفي من أحكام قيمية عني .لقد تعودت على هذه المهانة حتى أصبحت البشاشة في وجهي محلّ شبهة عندي واقتنعت أخيراً بأنه ليس عندي شيء ممّا يمكن أن يحترمني من أجله النّاس .ماذا أمّلك ؟ المال ؟ لا شيء ..القوة ؟ لا شيء ..أحياناً أظنّ أنّي أمّلك عقلا يفوق عقول هؤلاء السكارى نفا دًا ولكن ما فائدة هذا العقل ان وجد ؟ حتّى (بوسن الحقير) الجاهل يسخر مما أعرفه وممّا أقول :ثلاث سنين في(الجامع) حسب رأيه لا تساوي ثمن زجاجة جعة .في الآخر أجد أن الحق معه لسبب بسيط أنّني كلّما تعرّفت على أحد المثقّفين الجدد في الحانة شعرت أن ما أعتزّ به برق خلب بقي بعض الجاهلين من عمال المصنع ..هؤلاء، كلّما سكرُوا، اعترفوا بأنّ لي ذكاء لا يجدونه عند الشباب الجديد .كلّما سكرُوا ..

- فيم تفكّر ؟

- في لا شيء، سي صالح

- أنت دائما هكذا .لم لا تبحث لك عن عمل آخر ان كنت حقًا بالشكل الذي لا يودّ أن يعترف به عرفك ؟
وصبّ لي كأس جعة ..وإذا بيد تأخذ بعنقي فجأة
- ماذا ؟ تعود إلى ما حدّرتك منه ؟ يا سي صالح، اعذرنى .إنما هذا الانسان بدأ يهدّ أعصابي ..لست بحاجة إلى فيلسوف ..أنا بحاجة إلى نادل ..
وشعرت فجأة بشبه كرامة قديمة تعودني واختفى ترددي الذي لا يتيح لي عادة مجالا للكلام فشددت الحقير من يده ولويتها وأنا أصيح
- أيها الحقير ..أيها الحقير- آه ..أنت مطرود ..من الآن أنت مطرود.
وتدخل سي صالح بعنف
- لا تقل هذا ..لا يذهب بك الغضب هذا المذهب .لا أريد أن أكون سبب هذا الخصام
- حسناً ..حسناً
ونظر إليّ في حقد
- هيا .ماذا تنتظر ؟ اذهب وايت بزجاجة أخرى لسي صالح

(3)

- شفروت ..شفروت
أفقت على صوت هائج يناديني .ولم يمهلني القادم فرصة ارتداء ملابسي فدخل الكوخ وكأنّ الدار داره
- محمد مات
وعوض أن أعترض على طريقة دخوله وجدتني أقف حائرا
- مات ؟ وفكرت في اللا شيء ..في الموت ..لمدة لحظة واحدة ..وشعرت أن الأمر لا يهمني حقًا .فقلت وأنا أتخطى ترددي المقيت
- وتوقظني في مثل هذا الصباح ؟ فنظر إليّ بحيرة وصمت وفقدت فجأة عدم اكترائي
- سامحني ..انني لم أعد أصلح لشيء . كان القادم واحداً من آلاف السكان في الحي
بثيابهم المترهلة ووجوههم القاسية .غير أن وجهه الآن بدا معبراً وقد اصطدم تفكيره

شبه الميت بالموت .ان الناس هنا يعرفون دخائل بعضهم البعض فلا يقبلون بسهولة مثل هذه الأخبار ، يكون الواحد منهم قويّ البنيان وتجفّ شفّته وفجأة يعلو النحيب في ناحية ما من الحي .وسمعه يتحدث ببرود
- لم أكن أودّ أن أوقظك ..انما هي عائشة بعثتني إليك
- عائشة

آلاف الناس يتعدّبون ..ولأنني أحدهم أردت أن أرفض العذاب بالهروب ما أمكن في اللامبالاة .. ولقد نجحت الا في بعض الساعات عندما أجد بعض السكارى أفرغ عليهم كبتي فيجدون في صورتي المعدّبة صورة لكل حيّ ميت في هذا الحي .والآن أحس أنني كنت أمثل دورا ..حقا انني عاجز عن عدم الاهتمام ..عائشة ! !لم أثارني هذا الغيبيّ بأخبار هذا الصباح ، وما يهم رجلا مثلي في الموت وفي الأموات ؟ امرأة بئسة كانت ملكا لرجل بئس ملكا بآتم معنى الكلمة ..وانتحر المالك في حانة بوسن بالجعة والجوع ..ما يهمني أنا من كلّ هذا ؟

عائشة !هل قدرّ لأحسن امرأة في الحي أن تصاب في مورد رزقها ؟ أه أنا الغبيّ الذي لا يفهم من الحياة شيئا أعود إلى التفكير، إلى الرومنسية .ان عرفي على حقّ حين قال انني غيبيّ ..ما فائدة فكر لا يحلّ مشكلا ولا يغيّر موقفا ؟ ماذا أملك ؟ أنا على يقين الآن أنني لا أملك شيئا ..وأحسست بتفاهة المعدم يأخذه غثيان اعدامه ..ان المرأة لا شك بعثت تطلبني لاعانة أقدمها لها، لا من أجل هذا الشيء الذي شككتني فيه (بوسن) أولا وحصل لي اليقين الآن بتفاهته لا ..لا ..يجب ألا تعودني الرأفة أو الرحمة لأن هذه الأشياء حلّ للأغنياء والآلهة فقط وأنا نادل حقير في حانة عرف حقير .فلتذهبي إلى حيّ الدعارة أيتها المرأة ..ونظرت إلى الرجل الواقف أمامي يحملق في وجهي بغباء
- ماذا بك ؟

- قل لها انني..

-أقول لها انك ماذا؟

- قل لها ما تريد... - سفروت ... - قل لها انني لم أعد أصلح لشيء... وعندما تأكد من تصميمي خفض رأسه ليخرج من الباب الواطئ ومن دون أن ينظر الي فبقيت لحظات طويلة أحاول أن ألتد بعدم اكثراثيري.. وفجأة .. اللعنة علي.. وجريت الى الخارج وأنا أصيح

- انتظر..انتظر.. ووضع هو يده على كتفي في أخوة بئسة وهو يقول
- أنا أعرفك جيدا ..أعرف أنك شقيّ عظيم

(4)

كثيرا ما قرأ في بقايا الصحف التي يلف فيها الحرفاء اللحم لشيء في الحانة أخبارا عن الفقر والثراء ..و في حين يملك بعض الشيوخ مليارات عديدة اقتبلتني عائشة في شبه بيت ليس به غير حصير ناسل الجوانب وجرّة ماء وعدد من الأدوات حولت عن

استعمالها الأول فصار منها المقلاة والكؤوس...وفي جانب من البيت يقف صندوقان دقا الى بعضهما البعض فتكونت منهما الخزانة. ورغم ذلك فمن الممكن للمار خارج البيت أن يتحدث عن دار وعن أثاث..

كانت المرأة شابة لا يمكن أن تتعدى الخامسة والعشرين. ولو لم تكن عيناها محمرتين ولو لم تكن جائعة ناقصة نوم لما ظهر عليها سواء في قوامها أو حركاتها أنها بلغت هذه السن.. ولكن للبائسين أعمارا خاصة لا مجال لتوأمتها مع أعمار من يبنون سمئتهم من عظام محمد وملايين من المحمدين أمثاله.. وتساءلت وأنا أراها أمامي، أي زمن في حياتها حقق لها بعض السعادة؟ صباها؟ شبابها؟ حياة الزوجية؟ وعلى من تحسب هذه الحياة التي تصب في البحر؟ وشعرت بوفرة ألم وأنا أتذكر نفسي، صدقت يا عرفي..
- ناديتني؟

وتذكرت أنني لم أقل لتعزيتها كلمة واحدة.. حاولت أن أجد الكلام، الله الميت.. وعجزت عن الظفر بفعل يقيم علاقة بين هذين المتصارعين، الله قتل زوجك؟ الله أخذه؟ وأحسست أنني أعبت، ان الله لا يمكن أن يأخذ شابا قوي البنية كهذا.. انما الناس.. وتناسيت عرف الناس فتناسيت تعزيتها.
- ناديتني..؟

وشهقت المرأة بالبكاء.. كانت ضعيفة فكأنما كانت تطلب عونا يشدها فلا تسقط.. وكنت أعرف أن هذا العون، ان وجد، لا يمكن أن يوجد خارج الأرض. ورغم ذلك فقد كنت محتاجا إلى المغالطة. وتذكرت الله.
- الله استرد ما أعطى.. لم تنتحبين؟ أنت تعترضين على مشيئته؟
واختفت من هذه الجمل وعاودني التردد القديم.
- معك حق يا عائشة.. ما كان لله أن يفعل هذا..
ورأيتها ترفع رأسها في خوف فتراجعت
- ما كان لزوجك أن يغول جسمه بمثل ما فعل..
وأحسستها تتألم فتراجعت

- ماذا أقول.. ما كان لك أن تكوني تحت رحمة انسان وما كان لهذا الانسان أن يكون تحت رحمة الآخرين وما كان للآخرين أن يكونوا تحت رحمة نظم صنعوها للعبادة..
تحركت قليلا وأخذت يدي
- لا أفهم، شفروت.

- أنا أيضا لا أفهم..

وخفضت رأسها من جديد

- ناديتك لأنني بحاجة إلى عون

- الله يعين كل محتاج..

-.. لا أنا محتاجة لبعض المال...

- الله يعين كل محتاج..

وحدست أن أحسن امرأة في الحي ستتمى بعد قليل رصيد قحاب القوم..

وارتسمت في ذهني آيات حفظتها في الجامع تدمغ القحب وترجم القحاب.. وبدأت أخاف

من نفسي .. أنا سفروت، بدأت أملاً للعائلة في أن أصير شيخاً أدعو إلى الدين
وانتهيت إلى هذه الحالة أجد لكل قولة للربّ ضدّاً في الحياة .. وتشاءت أماً صافياً
- ناديتني لأنك بحاجة إلى عون .. أتعرفين من أنا؟ أتعرفين من هم سكان الحي؟

همست

- أعرف.

- وتعرفين أن لا أحد هنا في استطاعته أن يعينك .. باستثناء بوسن ..؟

وندمت على ما قلت

- سامحيني .. انني لم أعد أصلح لشيء ..

- أنا خائفة .

وتذكّرت الميتّ فحوّلت نظري في الغرفة .. وكأنها فهمت قصدي فأجهشت بالبكاء من
جديد .. كان الرجل مغطى بثوب بال حزين .. ورفعت الغطاء عن وجهه فهالني منظره
الشاحب .. لقد تحوّل في أقلّ من أسبوع إلى هذه البشاعة .. وغطيت الوجه 0 ان الموت
في حد ذاته لا يصنع البشاعة .. وأيقظني من حالة الضعف تلك ضربات على الباب
وضوضاء 0 لا شكّ أن المبكرين من رجال الحي أتوا لتعزيتها 0 ورأيت عائشة تتجه
إليّ في صمت وهدوء وكأنني أعرفها منذ ألف سنة
- أعرف أنك لن تخذلني، أعرف.

وعندما تسلّلت إلى الخارج لم أجد ما أملاً به فراغا بدأ يزحف نحو نفسي في قهر
وشدّة .. كنت ألتدّب بعدم اكتراث زائف .. كنت أمثل ملهاة لا تصلح للتمثيل ووجدت
نفسي القديمة القلقة تبعث من جديد وكأنماتكفي اثاره بعض الغبار حتى يظهر الانسان
عاريّاً كما ولد وكما سيموت .. والذي كشف هذا العراء امرأة لا أعرفها وتعرفني من
ثرثرة زوجها السكير يوم كان .. غير أنّ الذي لا أفهمه هو كيف التجأت إليّ من دون
بقية السكان ما الذي نكرها بي أنا بالذات هذا الصباح؟ ما الذي بعث فيها الثقة بي؟
ألسنت مجرد نادل حقير لا يعترف به أحد؟ وأنا، ما الذي يهمني من أمر هذه المرأة
وغيرها؟ أليس في الأرض ملايين من الناس ترتبط مصائرهم بارتفاع مفاجيء في
الحرارة أو انخفاض فيها، بهيجان بحر أو هبوب عاصفة، بلا شيء في بعض الأحيان؟
أهو شعور بأن من الناس من يهتمّ بي؟ وأيّ الناس وأي نوع من الاهتمام؟ أهو رغبة
التمثيل تبعث من جديد، تمثيل دور الفارس يهب حياته للضعيف ضناً بالمروءة؟ أهو
ميل جنسي يغطيه طلاء مزيف مما يسمّى بالانسانية؟ والانسانية، والمروءة، والجنس،
أهي أمور تتاح لكلّ أحد؟ وشعرت أنني ضعيف جداً. لقد صدق الخنزير (بوسن) وهو
يقول ان ثلاث سنين في الجامع لا تساوي ثمن زجاجة جعة ..

وفي الليل وجدنتني أتسلل إلى دار عائشة ومعني كل ما حوته خزانة الخمّارة هذه

الليلة، ثلاثون ديناراً وبعض المئات والمليمات ..

وبعد يومين أفقت في الصباح على صوت هائج:

- سفروت .. سفروت ..

ولم يمهلني القادم فرصة ارتداء ملابسي فدخل الكوخ وكان الدار داره:

- أنت موقوف .

(5)

لم يمض يومان على دفن محمد حتى امّحى ذكره من احاديث الناس وواصل المعمل بآلاته ودخانه وصفاراته وبائسيه سبك الحديد لا يثنيه شغور مكان عامل ضئيل ..وتقدّم مئات من سكان الحي يستمطرون عطف مدير المعمل أملا في سدّ هذا الفراغ ..
واتجه (بوسنّ (إلى منزل) سي صالح (يطلب مقابلة الشرطي في الحاح .ورغم أن زوجة رجل الأمن أخبرته بأنه نائم فقد بذل كل ما في وسعه لاقناعها بأهمية مطلبه حتى أيقظت زوجها ثم سمحت له بالدخول ..ولم يظهر على الرجل نصف النائم أنه فرح لهذا الدخول المفاجيء عليه غير أنه بذل جهداً كبيراً حتى لا يبدو عليه التبرّم والاستعلاء اللذان يميّزانه شرطياً يجب عليه دائماً في هذا الحي أن ينظر إلى عامة هؤلاء العملة من عل.

ولا يظنّ أحد أن تصرف سي صالح (صادر عن نفس متكبرة، بل هو عكس ذلك، رجل يؤمن بشدة أن ما يصل إليه الانسان في الحياة إنما هو تعبير عن ارادة الالهية تزجي فراغها بلعب الشطرنج، تعلي هذا وتخفض ذاك، فلا مجال للانسان أن يفخر

بنفسه أو أن يهجوها .. وإذا كان يتصرّف مع الناس بشدة فما ذلك الا لا اعتقاده في نزاهة القانون الذي يمثله .. القانون عنده يعلو ولا يعلى عليه .. و هو بصفته شرطياً في الحي يجب عليه أن يقف من السكان موقف الحكم ان أمكن وموقف الرادع ان تطورت الأمور .. وهذا الدور يفرض عليه أن يحافظ على بعض التحفظ والاستعلاء فلا يقبل كأس جعة مثلاً من أي كان) .. بوسن (مثلاً رجل مشبع بحسّ الحدود الاجتماعية فلا بأس أن يتعامل معه .. ف) سي صالح (بكلمة واحدة) نفس مؤمنة .. (وإذا كان الآن قد ظهر على وجهه بعض التبرم حاول قمعه فما ذلك الا لأنه حرم من النوم في هذه الساعة والرجل لا يحيا الا للنوم والأكلة الطيبة ..

حث الرجل السمين رأسه الناسل وهو يرى) بوسن (يجتاز العتبة ثم تتأهب طويلاً حتى يظهر ما تكلفه هذه الزيارة من تضحية (وكان) بوسن (نكياً فأحسّ بالموقف.

- سامحني، سي صالح، قطعت اغفائك ..

فقال الآخر وهو يبذل جهداً أكبر حتى يتأهب من جديد

- لا .. يبارك فيك .. ليست بيننا حواجز.

- أعرف ذلك وأنا أشكرك.

- تفضل اقعد، لا تقلق لهذه الفوضى.

- لو رأيت بيتي لما قلت هذا يا سي صالح .. جئت لأمر هام ..

- خير ان شاء الله ..

- يا سي صالح .. ما كنت لأوظفك لو لم اسمع بهذا الخبر، زوجة صديقنا المرحوم

محمدٍ قررت أن تبيع الدار ..

وتوقّف عن الكلام وكأنه ينتظر استغرابه فرفع اليه الشرطي عينين نصف

مغمضتين لا تدلان على شيء.

- وما دخلي أنا في هذا الأمر؟ المرأة حرّة في ما تفعل. وبعد ذلك، الدار دارها ..

- أنت لم تفهمني ياسي صالح .. المرحوم صديقنا، صديق الكلّ بل هو أخ لكل سكان

الحي .. وإذا كان لا مردّ لأمر الله فامرأته في عنق كلّ واحد منّا، المرأة وحيدة في هذه

الدنيا فهل يجوز لنا أن نتخلّى عنها في هذه الفترة المؤلمة؟

واقترب من سريره أكثر وقد ازداد صوته تأثراً وكأنما بلغ القصد في افهامه غير

أن الرجل لم ينطق واكتفى بالصمت ..

- أعرف أنك ياسي صالح رجل مؤمن، وانك تملك قلباً من ذهب ..

- ولكنني دائماً لا أفهم .. هل تريد أن نجمع لها بعض المال؟

- هذا لا يكفي ..

- اذن قل لي مرة واحدة ماذا تريد ..

تنحج صاحب الحانة، وبعد صمت

- سأعرض عليك ما فكرت فيه ياسي صالح .. ما رأيك لو ضمّنا لها بعض المال في كل

شهر؟

ولم يتلق جواباً وقعد الآخر على سريره مفكراً لمدة طويلة.

- ومن هو الذي سيضمن لها هذا المال؟

- الناس في الحي، كل الناس، أنا وأنت ..

وعندما لم يتلق جواباً غامر بالقاء ما أتى من أجله:

- أنا مستعد لأوفر لها هذا المال ..

- وبأي عنوان ؟

- سي صالح .. إذن أنت لم تكن تنصت الى ما كنت أقول .. الوفاء سي صالح .. هل ماتت القيم الانسانية حتى أصبح الانسان يرى الجثة فيأكل لحم أخيه، أم لأنني خمار؟
والآخر لا يقدم على الاجابة (نعم هو يؤمن بالله ايمانه بالعفاريت .. ومع ذلك فقد كبر عليه أن تبلغ الانسانية بـ) بوسن (هذا المبلغ .. وظهرت على وجهه أمارات بلاهة واضحة فسأل من جديد:

- بأي عنوان ؟

- سي صالح !..

- وما دخلي أنا في كل هذا ؟ اذهب واعرض عليها هذا العرض ..
- لقد جنّتك لتعيني .إنها امرأة عالية الهمة ..لن تقبل بسهولة ..وأنت رجل يحترمه كل من يسكن الحي .. أنا لا أمدحك ..تلك هي الحقيقة ..أنت رجل كلمة ..
- ولكنني لست صاحب العرض ..

- وهل ثمة فرق بيني وبينك ؟ سي صالح، أنا أثق بك فثق بي ! ..

وازدادت النفس مطمئنة بلاهة ..وانتفخت لغايد الشرطي الذي يعيش للنوم والأكلة الطيبة وهو يسمع هذه المدحة ففكر أنه لا بد أن فعلا خيرا، والمعين على فعل الخير كفاعله.

- سأمرّ عليك بعد حين ..ربع ساعة ريثما ألبس البدلة ..

وبينما انصرف (بوسن (وهو يكرّر الشكر نادى سي صالح زوجته وقد عادت اليه هيبته

- يا امرأة .. أين أنت .. أين بدلتى الرسمية ؟

وجاءته ببذلة (الحاكم (وبقيت تنتظر اليه وهو يرتدي ملابسه
- ماذا بك ؟ لماذا تضحكين ؟

- على عقلك الصغير ..هل صدقت (بوسن الحقير (؟ الانسانية ! !
وانتفخت أشداق الرجل في لحظة

- كنت تتسمّعين بالبواب هذه المرّة أيضا ؟

- ومن لها أن تصبر عن التسمع إذا كان لها زوج مثلك ؟

- اذهبي ..اغربي عن وجهي والا كسرت رأسك ..

ولم تمض لحظات حتى كان نصف سكان الحي قد تجمعوا قرب دار سي صالح ينتظرون ما ستسفر عنه هذه المباراة الجديدة.

(6)

بيعت دار الميت بالمزاد العلني لرجل ليس من الحيّ .. ولم يقع ذلك الا بعد صخب وضجيج ومؤامرات حيكّت في خفاء الحانة بزعامة (بوسن) (فقد استعمل ماله ومعارفه من المسؤولين لاقتناع عائشة بالعدول عن قرار بيع الدار . وذهب به اهتمامه بمصير هذه المرأة حدّ ان عرض عليها عشرين ديناراً إعانة شهرية يؤدّيها وفاء لصديقه القديم .. والمالك الجديد رجل رقيق الجسم طويله في الخامسة والأربعين، لا عائلة له باستثناء شاب في السابعة عشرة يقول عنه انه سوف يقدم حالما يتسلّم الدار ..

ولقد تأثر الرجل أشدّ التأثر عندما سمع قصة عائشة ولكنه كان متحفظاً ازاء الغرباء واكتفى بملاحظة أن زوجته قد توفيت منذ عشر سنين، وأنه كان صاحب ثروة تلاشت في معاملات تجارية .. ووصل قمة التأثر يوم جمعت عائشة ما تعدّه أثاراً فاعترض طريقها وهي تحاول اخفاء تأثرها

- يا امرأة .. يشهد الله أن ليس بي مما قد تظنين أو يظن الناس شيء .. إنما أعرف ما ستكون عليه حياة امرأة وحيدة في هذه الدنيا ..

وصمت لحظة،

- ها أنا أعرض عليك، إن أردت، الإقامة معنا، أنا وابني، ستكونين في محل ابنتي. وسرى الخبر في الحي كالنار .. كان الناس من أول وهلة محترزين ازاء هذا الرجل الذي لا يتحدّث الا نادرا وبصوت منطفيء .. هم يودّون العريضة والصياح ويعترضهم الصمت والوحدة .. هم هنا لا يقبلون بالغرابة تهّد الشعبية فيهم والحياة النباتية الصاخبة التي يحيون .. ان الصمت والهدوء كفر، بل هو موت، كجسم محمد بعد أن جفّت شفتاه وعلاهما شيء كالطلاء الأبيض .. ولأنهم ينطلقون في أحكامهم من أنفسهم فقد انقسم كل واحد اثنين، واحد يحبّذ هذه اللقطة الانسانية للغريب وواحد طغى على نفسه ظل آلاف السنين من الكبت الجنسي فلم يلمح في المالك الجديد غير جسد تائر يهصر في لذة لحظة النشوة القصوى أخضر جسد وأنظفه في الحي .. وأحسن من يمثل هذه النظرة ذو الضرس الذهبية .. غير أنهم لم يستطيعوا عملياً ان يقوموا بأي

شيء .. وحتى صاحب الحانة اكتفى أخيراً بعد أن هيج الناس زمناً بملاحظات مسمومة يطعم بها كلامه كلما كان حديث في الحانة عن النساء ..
وحلّ الشاب بالحيّ فكرّر صورة أبيه .. الصمت .. القامة الطويلة .. وثياب سوداء كأثها تعلن عن موت عزيز .. وسرعان ما بعثت هذه الطبيعة جواً من التحدّي عند من يسهرون على سلامة الصخب والعنف في الحي .. ووجد صاحب الضرس الذهبية في ذلك مجالاً لتوجيه القوم نحو استفزاز غريمه .. وبعوض الجعة والتشنيع الجنسي توصل إلى اقناع عدد من الشبان العاطلين بأن هذا الشاب إن تخفى وراء محفظته الكبيرة وجّوه الوقور فما ذلك إلا في سبيل تكريس احتقار جوهرى للناس اذ هو نفس شريرة لا يمكن أن تهذبها أية ثقافة.

- ماذا كان مصير شفروت عندما تتقف ؟ أصبح فقط يبهر السرقة ..
وفي المساء كانت جماعة من الشبان برئاسة حمادي، أحد خريجي الاصلاحية، في مدخل الحي ينتظرون شيئاً ما،
- يموء علينا بمحفظته الكبيرة .. وأبوه ماذا يفعل ؟ أفلت بأحسن فخذ في الحي !
- ايه حمادي، يجب أن تترك له أمانة حتى يدفع (التمن جعة هذه الليلة).
- لا تخف، سنشرب حتى الموت

وظهر هو في البعيد بحجمهم، تعبا . فوضع حمادي يدا في جيبه والاخرى على خصره وابتسم في فخار ..
ثم تقدّم والآخرين يتبعونه في صمت وحدق في وجه الشاب وبدأ يهزه ويحطه بنظره في وقاحة ثم انطلق في ضحكة طويلة متصنعة والآخرين دائماً يقلدون كل علامة ينم عنها وجهه .. ثم صمت فجأة وشده من عنقه، في حقد، والآخر ينظر إليه بعينين فارغتين لا تمنان عن شيء، فكأن نظره يتعداه، في صمت .. وبدا على حمادي بعض القلق فحوّل نظره عنه وصاح قطعاً للصمت:
- ماذا حلّ بك ؟ ألا تتكلم ؟ ألم تتعلم النطق ؟

ومن جديد
- أكلمك .. أنت أطرش ؟ ما اسمك ؟
والتفت إلى الآخرين ينظر إليهم واحداً واحداً . وعندما تعب من صمتهم دفعه إلى الورا حتى كاد يسقطه وهو يلعن:
- اذهب إلى الجحيم أنت وبسنّ ..
وتراجع نحو رفقائه

- فلنترك هذه الحقارة .. هو عاجز حتى عن النطق ..
قالها وكأنه يبهر ضعفاً اجتاحه والآخر يحدق فيه بعينيه الفارغتين .
- ماذا حلّ به ؟

- ما اسمه ؟
- تسألني عن اسمه ؟ ألم تره ؟ انه يذكرني بشخص أكرهه سيحاكم بعد أيام ..
- من ؟ شفروت ؟

- نعم .
- آه حقاً !!
واقترح أحدهم

- ومع ذلك سنقول للحقير اننا خبّطنا سفروت كأعنف ما يكون ..
واتجه الجميع نحو الحانة وقد عادت إليهم الثقة ووضوح الأمور من جديد والشاب
الغريب يمشي أمامهم في سواده .. كان يودّ الوصول إلى الدار من دون أن يعترضه أحد
فيبدّل ثيابه الممزّقة فوجد أمامه عددا من الفتيات كنّ تحاولن أن تتحدثن بصوت عال،
فحدس أنهن حضرن هنا للاستطلاع .. واعترضت طريقه سارة، وضحكت في وجهه
بوقاحة .. كانت أجملهن نحيفة وقحة، فحوّل بصره في ارتباك وأسرع الخطى تتبعه
قهقهة عالية ..

(7)

ما أن دخل البيت حتى أسرع بتبديل قميصه وقد بدت فيه آثار العركة حتى لا يثير
تساؤلات أيّ كان . غير أنّ عائشة لاحظت ما كان يبذله من جهد لإخفاء تأثر واضح .
ولكنّها لم تسأله عمّا تعرّض له فقد تعودت على جوّ العائلة الصغيرة الصامت لا ينقضه
اهتمام طرف بالطرف الآخر . إلاّ أنّه لم يطل الإقامة هذه المرّة في الغرفة المخصّصة
له ولأبيه والتي تقوم مقام بيت التّوم والعمل ففتح الباب ووقف بالعتبة ينظر في اتّجاه
عائشة على عكس عادته.

- هل يمكن أن أطرح عليك سؤالاً ؟

واقتربت منه المرأة مضطربة

- تفضّل .

- من هو سفروت ؟

وازداد قلقها فما خمنت بواعث سؤاله وذهب بها التكهّن كلّ مذهب لأتّها سمعت
بما يبئّه صاحب الخمار من اشاعات حول امكان وجود علاقة بينها وبين السارق
ولأتّها على يقين أنّ هذا الشاب الصامت دوما ما كان ليطرح عليها هي نفسها هذا
السؤال لو لم يكن الأمر هاما فهما يكادان لا يتبادلان أيّة كلمة طول النّهار ..
حاول أن يطمئنّها وقد لاحظ حرجها:

- استفزّني بعضهم منذ قليل .. وسمعت واحدا منهم ينعنتني بهذا الاسم في لهجة حقودة ..

- أنت تطرح عليّ سؤالاً محيّراً .. ماذا أقول ؟ ان ما أعرفه عن هذا الرّجل هو ما

تعرفه كلّ النساء اللّائي يسكر أزواجهنّ في الحانة . كان محمد يحدّثني في بعض

الاحيان عنه .. كان يقول إنّ رجل ذكيّ .. يعيش على ذكريات مرّة .. يظهر مأخوذا

دائماً .. كان نادل الحانة القريبة من هنا ..

- ولم يعمل إذن في حانة حقيرة كتلك إن كان حقاً كما تقولين؟

- كان يعمل .. لا أدري لماذا .. هناك إشاعات كثيرة حول هذا الرجل .. من الناس من

يقول إنه سجن سابقاً في فرنسا لأنه جرح أو قتل أحد الناس .. أنا لا أصدق .. رجل مثله

..

- هل تعرفينه عن كذب ؟

وأحنت المرأة رأسها

- بلى .. لكن لا كما يظنّ الناس .. مات محمّد فجأة .. أصبحت وحيدة من دون مال .. وضاق عليّ الدنيا .. لم أكن أملك ما يكفي لدفن زوجي .. وتذكّرت ما سمعت حول سفروت فناديته وأنا لا أعرفه .. كنت مخبولة بفعل المصيبة التي نزلت بي .. وفي المساء حمل إليّ ما احتوته خزانة عرفه من مال .. كنت مخبولة حقاً لأنني قبلت ذلك .. والآن ما يمكن أن أقدمه لإعانة هذا الرّجل ولم يبق على محاكمته غير أيّام؟
- كم حمل إليك من مال ؟
- ثلاثين ديناراً ..

- مبلغ تافه ولكنّ المتمعّشين من القانون لاشكّ واجدون في أرشيفاتهم ما يملأ لوحاً محفوظاً عن هذه المسألة .. لو كلّمت أبي في الأمر .. لابدّ أنّه سيتفهم المشكلة .. هو ليس صاحب الحانة أو رجل قانون .. فلو عوّض الرّجل عن خسارته أتظنّ أنّه لن يسحب شكواه ؟

أجابت بيقين

- لن يسحب شكواه ولو أعطاه المبلغ مضاعفاً.

وصممت لحظة قبل أن تهمس

- لقد عرض عليّ قبل أن يشتري أبوك الدّار مبلغاً حتّى لا أبيعها .. قال أنّه يريد أن يتكفل بي لما يربطه بزوجي من صداقة، صداقة مهربّ بمستهلك المخدرات .. أظنّك تفهم .. زيادة على أنّه يحقد على سفروت لأكثر من سبب (هذا الرّجل كان لغزاً لكل من في الحيّ لأنّه الوحيد الذي تزعزعت عنده القيم فلم يعد يفهم الفارق بين قيمة وأخرى، بين مبدأ وآخر .. في ذلك النهار المشؤوم حثني بشكل أخافني .. كان يتحدّث عن الله بشكل لم أعهده من قبل (وقال لي انه ليس لديه ما يقدمه إليّ .. كان في الصباح يرى أن السرقة ضدّ للشرع وفي المساء حمل إليّ ما حوت خزانة الخمّارة .. بقي ينصت إليها بلدّة وهي تتحدّث بعقل امرأة أبلغها الألم درجة عليا من الوعي.
- وهل تظنّين أن مثل هذا الرّجل يعجز عن تبرئة نفسه أمام المحكمة ؟
- أنا على يقين أنّه سوف يغرق نفسه أكثر.

ونظرت إليه باطمئنان وقد ذهب ما كان بينهما من تنافر

- لي مطلب عندك.

- ؟

- لو ذهبت معي إلى المحكمة بعد يوم ..

فكّر قليلاً ثم صمّ

- يقينا سأذهب معك .. لقد سمّوني منذ قليل سفروت ..

(8)

كانت قاعة المحكمة ضيقة فلم تتسع للعدد الوافر من سكان الحي الذين جلبتهم محاكمة شفروت، زيادة على عدد من العاطلين يمرّون أمام المحكمة فيدفعهم قلق مبكر إلى التفرج على مآسي من أطاح بهم وضع ما في أيدي النصوص القانونية .. وكان شفروت الصغير وعائشة قد حضرا منذ وقت مبكر وتمكنا من الجلوس في مقدمة الصفوف كما لم يتخلف أي من صاحب الحانة أو حمّادي أو غيرهما من أصحاب الأسماء المشهورة في الحي .. وعندما ظهر شفروت الكبير بقيادة شرطيّ اتجهت الأنظار نحوه وتركز عليه نظر شفروت الصغير .. وهمست عائشة:

- لقد تغيّر وجهه إلى الشحوب . لا شك أنه اصطدم بـ «هم» أثناء التحقيق.

وتكلم الرئيس:

- أقسم بالله لا أقول غير الحق ..

وصمت المتهّم

- ماذا بك ؟ ألا تتكلم ؟ ألم تتعلم النطق ؟

- لن أقول غير الحق.

- أقسم.

- أقسم بمن تريد لن أقول غير الحق.

وضجت القاعة فهمست عائشة من جديد:

- قلت لك ان سرقة ثلاثين ديناراً سيصيّرُها عناده سرقة مليون.

وضرب الرئيس على الطاولة.

- أقسم بالله لا أقول غير الحق.

ونظر في ملف امامه بتمهّل وهو يستعرض أطوار القضية ثم أحال الكلمة إلى ممثل

النيابة

- لننظر حضرات السادة في حياة المتهّم .. ان من الناس من جبل على طبع شرير لا يمكن أن

تهدّبه الثقافة ولا يمكن أن تحمله التجارب المرّة على أن يرتدع .. هذا دليل ضد القائلين

بوحدة الطبع البشري عند كل الناس .. ألا ترون أن من الناس من يموت جوعاً ولا يمدّ يده

الى لا يملك ؟ وهذا النوع المثالي من البشر لا يمكن أن يموت.

جوعاً لأنّ الأمّة تعيشت من أبنائها من زكي عرقه .. أريد أن أقول أيها السادة من خلال

عرض مثالين متناقضين اننا ازاء انسان يمدّ يده الى ما لا يملك من قبل أن يجوع .. وحياته

كلها شواهد على ذلك ، في مرسيليا كان هذا المتهّم مورطاً في ماذا ؟ في قتل نفس بشرية

حرمّ الله قتلها .. وفي أية ظروف؟ في ظروف تشمّ منها رائحة السكر والعريضة والخنى ..

وجاء إلى تونس مطروداً بعد أن شوّه سمعة بلد كبلدنا يعرفه الكل على أنه محطّ حضارات ..

وانتقله أحد أصحاب البرّ من الأعراف الشرفاء حتى لا يبقى عالمة على هذا المجتمع العامل
.. فكيف كانت طريقته في رد الجميل؟ سرق عرفه.. 0

وضجّت القاعة من جديد تدفع الناس غريزة رعوية:

- نعم أيها السادة .. ان الرجل الذي يقف أمامكم لم تكفه أعماله دليلا واضحا على النفس
الشريرة التي تحكمه .. نعم ، لم تكفه أعماله فعمد إلى شيء أخطر لابدّ من رده بشدة حتى
يكون المتهم مثالا للمعتبرين 0 ان الرجل قتل واعترف بالقتل وقال انه لا يحسّ انه قتل ..

وأخيرا سرق واعترف بالسرقة .. وعندما سئل اتدرون ماذا قال؟ قال انه لا يحس انه سرق
.. أبعد هذا أيها السادة يتحدّث بعض أصحاب النظريات المستوردة عن طبيعة انسانية موحّدة

ويقصرون العامل المحدد لتصرّف الناس في القدرة على التمتع بالغذاء والجنس؟ جناب
الرئيس، أيها السادة ، لست في حاجة للدفاع عمّا قلته لسبب بسيط وهو أن المتهم لا يدفع
عن نفسه شيئا ممّا يورده ملقه الجنائي ورفضه التعامل مع محام أكبر دليل على ذلك.

وتدخّل الرئيس

- ما رأي المثّم في ما جاء في ادعاء الوكيل؟

وابتسم شفروت

- يوجد عدد من الجرائم لم يقبض عليّ فيها .. فهل يسمح سيدي الرئيس ..

- لن يخدم هذا خلاصك ..

واعطيت الكلمة لمحام شاب فتحدّث وتحدّث ولم يبق في دماغ القوم من حديثه غير كلمات
انسانية ، ظروف التخفيف ، سماحة المحكمة .. وابتسم شفروت وهو يقول لنفسه:

- لست نادما انني لم أخطيء فأطلبه للدفاع عني ..

وطلب الرئيس من المتهم ان كان عنده ما يضيف فصمت مدة:

- سيدي الرئيس .. سأحدّث بأسلوب سيادتكم اليوم لأنني معجب بشخصكم، سمنة وذكاء ..

فهذان لا يوجدان معا الا قليلا .. ولأنني أودّ أن أعيش ولو لحظة هيلمانات الخطاب ..

سيدي الرئيس .. لقد أتيت لشخصي المتواضع شرف سماع حضرة العالم القانوني وكيل

النيابة وأسرع فأقول انه من غير المعقول طبقا أن يشكك متمعش قديم من الخنى كما

وصفني العلامة في كلام سيّد شريف بيده واجب حماية نساء القوم وأرزاقهم .. وإنما أودّ فقط

أن أقدم تأويلا فقيرا لما قدّمت يدايذ 0 سيدي، صدّقني، لقد شعرت مرّات وأنا في الزنزانة

أنني ما قمت بهذه الجريمة إلا رغبة في توفير الشغل لعدد من المتخرّجين الحقوقيين لا

يحسنون غير الكلام .. قد تكون مساهمة بسيطة يا سيدي ولكن على المحكمة أن تأخذها بعين
الاعتبار .

وصرخ الرئيس:

- هذا ما عندك .. هذا كلّ ما عندك؟ وماذا تقول في ما أحدثت من فساد في مرسلينا؟

- سيدي، لقد خشيت على سمعة البلاد، ان بعض الناس بدؤوا يفكرون أننا شعب كرام هادئين

كقطيع الغنم . وهذا، سيدي، حسب ثقافتني المحدودة، شذوذ عن الطبيعة الإنسانية .

وضرب يدا بيد

- لقد قمت بذلك أيضا وأنا أفكر في خدمة هذه البلاد ..

- كفى .. كفى .. الصمت وإلا أخليت القاعة ..

والتفت الرئيس حو اليه يحدّث مساعديه ثم اتجهوا جميعا نحو قاعة مجاورة .. ومرّت فترة

قصيرة جدّا عاد بعدها الجمع إلى مقاعدهم وتتنحج الرئيس:

- عمر بن أحمد الغربي شهر شفروت ..نظراً إلى ..ونظراً إلى ..فقد حكمت المحكمة بسجنك عاما مع الأشغال الشاقة.

(9)

لم يمر أسبوع حتى قرّ رأي شفروت الصغير على زيارة السجين (شيء ما يشل الوحدة في تفكيره ..لم تعد تهمّه حادثه النادل مع عائشة بل شيء آخر ..والتمثيلية التي عرضها أمام المحكمة لم تقنع أحداً (كانت خطابة تخفي جرحا عميقا واقتبله السجين بتحفّظ شديد..لم يفهم سبب الاهتمام المفاجيء به ..يوم تعزّ الصداقة في الحياة الطلقة هل نطبقها في الاحتواء؟ ليس من الغباوة أن نحيا ونأمل ونبني وقد أصبح الحلم ممنوعا؟ حتى في أوقات الوحدة أصبح الإنسان يحسّ بالذنب ان اطل عليه طيف ..

صدمته كلمات شفروت الصغير وهو يسأل من دون مقدّمات - لم تحك لهم قصّة مرسيليا بصدق ؟

وتراجع شفروت الصغير وهو يرى السجين يحملق فيه بغیظ .. لعلّ ذلك كان يخفّف من حدّة التصورات التي كوّنوها عنك ..

فغضّ الرجل بصره كمن بدأ يحسّ بثقل غيظه وانهار

- لا أدري لم أحدثك بهذا وأنا لا أعرفك ..ومع ذلك سأحكي لك كلّ شيء ..لا أدري لماذا .. لا يهتمّني سبب اهتمامك ..لم يعد يهتمني أي ..لا ..لا ..لم يكن من الممكن أن أحكي لهم ما حدث في مرسيليا ..كان في إمكانهم أن يضحكوا مما أقول ..واستغرق مدة في تصورات بعيدة

- لم أكن أحب كليز ..وما كان هو يحبّها ولا أيّ واحد منا ..إنّما في هذه الليلة تحوّلت إنسانا جديدا ..كان يمكن ألا أهتمّ بما حدث ..أنا على يقين أنه كان يمكن ألا أهتمّ بما حدث ..لقد رأيت في حياتي أفزع الأشياء ..أشياء أفزع مما حدث لـ (كليز ..(إنّما ..ما كان له أن يفعل ذلك ..في تلك الليلة ..وما قيمة أن تكذب (كليز ؟) ..أن تقول أنّ البحّارة الأميركيان لم يعطوها أكثر من مائة فرنك ؟ أمام الوجه ..أمام وجه الإنسان ما قيمة مائة فرنك أو أكثر ؟ لكنّه لم يفهم ذلك ..استلّ موسى صغيرة ..وبحركة ما ..جيك ..الخييط الأحمر في وجهها .. آه ..لم تصح (كليز .. (غطت وجهها بيديها كمن لم يفهم ما حدث ..إنّما أنا ..لقد رأيت الخييط الأحمر ..وأفقت على أناس يفتكّون بقيّة الزجاجة من يدي، والآخر ممدّد على الأرض، بلا حراك ..أتفهم ؟ لم يكن يهتمّني أن يضربها ..أن يقتلها ..إنّما هي حالة ضعف اجتاحتني وأنا أرى ذلك الشيء في وجهها.

وصمت قليلا

- إنّني أخاف هذه الأشياء ..وإذاك تحوّل خوفي إلى هروب ..هربت في القتل .. - ألم تندم ؟

- أندم ؟ لا أدري ..عندما كنت في السجن هناك، كان يعاودني من حين الى آخر حنين إلى الهدوء والعمل الهادئ ويحضرني الوجه فأنسى كلّ شيء وتختفي مفارقات الحياة وأومن أنّ كلّ الأمور سواء واذهب إلى التفكير أنّ العقاب نفسه جريمة فما هي مسؤوليتي أنا في تلك

اللحظة وأنا أرى) كلير (تغطي وجهها بيديها؟ أوكد لك أنني لم أكن أحبها ..إنما القضية قضية أخرى.

وبعد صمت قال بصوت بعيد وكأنه يحدث نفسه

- عندما يكون في المنطق الحياتي الأول خلل يفلس الإنسان ..إن الحياة نظام ..وما السعادة إلا حالة يولدها هذا النظام الذي قليلا ما يساهم الإنسان الفرد في إقراره ..هذا إيماني ..وقد حدث في حياتي من البداية ما أفسد هذا الانطلاق ..كان يمكن أن أسير في طريق دون أخرى ..ولكنها كلها تتحد في أنها تؤدّي إلى زقاق مسدود ..وصمت برهة وهو يتملى في وجه شفروت الصّغير

- لا ..حقا أنا لست بنادم ..

وتخلّى عنه شبه الرعب الذي استولى عليه وشفروت الصّغير يصدمه بالسؤال وبدأ يمشي جيئة وذهابا وقد اختفى من عينيه ذلك التركيز المفاجئ الذي امتلكه .وتوقف قرب شفروت الصّغير ووضع يده على كتفه (كانت أصابعه رقيقة طويلة لم تجعل لحمل الأثقال في موانئ المدن البحريّة هنا وهناك ..وركز على شفروت الصّغير نظره وقد بدا صغيرا ضائعا وكأنما أثرت فيه القصة تأثيرا عميقا

- ما الذي يأخذك؟ ها ..أفق ..

- لا شيء ..

- لا شيء؟ هذا ما لا يظهر عليك.

وعاوده تررده القديم فنظر إلى شفروت الصّغير بتحوّظ

- كان يجب ألا أحدثك بهذا ..أنا أخيفك ..ها ..

وابتعد عنه.

- كان عليّ أن أعيد عليك قصة المحكمة .. لا ..بل كان عليّ ألا أحدثك بشيء مطلقا ..أنت شاب

- اسمعني ..أنت لا تفهم ..لا تفهم ..انني ..انني معجب بك.

وظهر على وجهه شبه حياء طفوليّ ومع ذلك سأل

- هل تظنّ أنني لو كنت مكانك ..أمام هذا الشيء ..الوجه ..آه ..

- فلنبذل مجرى الحديث ..

- ما تظنّه حدث لها بعد ذلك؟

- آه أنت تعود ..ماذا يمكن أن يحدث لها؟ لا شكّ أنّها تواصل حياتها القديمة ..بينما أنا هنا الآن ..من دون جواز سفر ..من دون شيء ..يحكمني «بوسن» ..«يحكمني سجان ك (بوسن) يحكمني خيال مخيف ..

واقترب من شفروت الصّغير من جديد وسأله في خشية

- لا أفهم سبب اهتمامك بشخص مثلي ..شاب بمثل مستقبلك ..عندما حدثتني عنك عائشة لم

أستطع أن أكون عنك فكرة ما ..ظننت بادئ ذي بدء أنّه شابّ فضولي سمّاه أهل الحي

شفروت فحاول أن يعرف مصدر هذا الشبه ..وبعد ذلك تخلّيت عن هذا التفسير ..أليس

صحيحا ما أقول؟ على ذكر التسمية ..حكمت لي عائشة قصّتك مع حمّادي ..ذلك الغبي ..

كنت دائما أقول انه لا يصلح لشيء ..

- مناقشات شبّان ..

- لا .. لا تظن ذلك .. إنَّ المشكل أعمق ممَّا تتصوّر .. أنت لا تعرفهم لأنك لم تختلط بهم ..
والآن أعرف أنه يستحيل عليك أن تختلط بهم .. هم بحاجة إلى سكارى جدد يملؤون حانة
ذلك الحقيير .. لا حاجة لهم بمن لا يفهم، بمن يتساءل عن كلِّ شيء .. إنَّ أسوأ ما فيهم أنَّهم
يفهمون كلَّ شيء، ومن الوهلة الأولى .. وستضطر إلى الإقامة في الدار لا تبرحها حتى لا
يعترضوا طريقك .
- هذه كلُّها دقائق .. وبعد فأنا أخرج كل يوم .. أتوغّل في الجبل وعلى الشاطئ قرب البناية ..
البناية السوداء ..
- حقا ؟

وصمت قليلا قبل أن يسأل:

- وهل لم يعترضك أحد ؟ صاحب البناية ؟
- لا .. لماذا ؟

فقال بيقين:

- لا شكَّ أنه تعامى عنك فقط .. إنَّ هذا الرَّجُل لا يقبل أن يدوس ترابه أحد .. هو يسمي
(السكان) بقايا (الآخرين، احتقار المالك لمن لا يملك شيئا .. إنما بدون تمويه، بصراحة .. ذات
مرّة حاول حمّادي أن يتخطى هذه الحدود فأطلق عليه الرصاص .. يجب أن أقول ان حمّادي
عمد إلى ذلك جريا وراء أخته الصّغيرة ..
- هذه الفتاة !!

واستعادت ذاكرته مشهد الاستفزاز والفتاة تحدّق فيه كمن يتحدّاه ويسخر منه

- لا أفهم .. وإذن فلم يسمح لها أخوها بمخالطة أطفال وشبان الحي ؟
- لا شكَّ أنه لا حول له في ذلك .. الناس كلهم يحبّونها في الحي فكأنهم حولوا حقدهم على
الكابتان ك حبّا لها .. هم يرون فيها شبه تحدّ له .. وهي تحبّهم .. الأنسة الصّغيرة فتاة رائعة ..
واجتهد شفروت الصّغير في تبديل مجرى الحديث وقد بدا عليه الاضطراب
- سأعود كلما سنحت الفرصة .. أتعرف .. شوغل الدّراسة .. النَّاس هناك يؤولون تصرفي
نحوك بالجنون ..

وتصافحا طويلا .. وعندما خرج شفروت الصّغير بقي شفروت مدّة واقفا في مكانه لا
يبرحه وقد تركّزت أفكاره في صورة مخيفة
- اللعنة على (كلير) .
وأحسَّ أنه يحبّه .

(10)

غادر شفروت الصّغير السجين وقد حلَّ محل الفضول شعور بالغرابة بدأ يعمل على نقض
كل تفسير يصل إليه .. لقد تفاقم اهتمامه بأمر ما يحدث في الحي حتى أصبح من العسير عليه
أن يركن إلى تفسير أولي لما بدأت تتفتّح عليه عيناه، هذا الرَّجُل شبه الأصلع ذو اليدين
الناعمتين المسجون لأفعال يقترفها أيّ كان وجد نفسه في زقاق تعبق منه رائحة البطالة

والقهر الاجتماعي يخفي وراء عاديته حساسية مرضية .. وعائشة، المرأة الشابة بسنيها الخمس والعشرين تقف من دون سلاح ازاء مجتمع هائج يتجاهل في زحفه الباحث عن الخبز واللذة ألف ألم وألم مزق هذه المرأة فما عرفت يوماً أنّ للإنسان طاقة محدودة على العفة والحياة الفاضلة .. والأنسة الصغيرة تقتحمه عيناها في تحدّ كأنّ بينهما قصة مزعجة قديمة من ألف عام .. والكابتان ك باعتراله الدنيا متذرّعاً بيقين أنّ النَّاس قسمان :قسم خالص الطينة صاحب أملاك وقسم خليط لا يصلح لغير الرّق والسوط .. وشفروت الصغير بينهم ماذا ؟ إنّه لم يكتشف بعد دوره في هذا الصّراع الصامت الدّفين ..

وبلغ الحي وقد انتصف النهار وخلت الطرق إلا من بعض النّساء تتمايلن في ملاءاتهنّ الملوّنة أو في السفساري حافيات أو في شبه حذاء ، طلبا للماء ..كانت الواحدة منهنّ تمشي من دون أن ترفع رأسها حتّى إذا ما جاوزته النفّنت مرّة أو مرتّين وواصلت طريقها في صمت الهاجرة..

وهناك حول السبالة يقوم حوار طويل بين النساء حول ما يجدّ في الحي وكثيرا ما يتحوّل إلى خصام عنيف تنقسمن فيه قسمين أو ثلاثة وتتشابك الأيدي والسطول في معركة عادية تنبش فيها الأسرار وتثار الفضائح ويعلو السباب المقذع .. غير أنّ هذا أمر عاديّ لا يحدث صدى إلا في حالات نادرة ..

كنّ خليطاً من كل الألوان والأشكال ..كانت بعضهن جميلات كالورود بين الحشائش المغمورة الموحلة لكنهن تتحدّثن في قصر عمر الشّباب ..فلن يدوم هذا الشّباب ولا هذه النّضارة بعد الزواج ..فلن يطلب منهنّ غير التوالد ومزيديا من التوالد ولن تطلب هي نفسها أكثر من ذلك، ستحاول فقط أن تنتج أكبر عدد من المستأصلين يتوزّعون بين السرقة وبيع السجائر والتسكّع ..ومن شدّ منهم عن هذه القاعدة فلن تكون له حياة حرّة يملكها ، سيحاول الطيران بعيدا عن هذه الحبال العنكبوتية تشدّه إلى الغمرة، بعيدا عن إخوة فشلوا في كلّ شيء ، بعيدا عن أب وأم ينتجان الأطفال ليتمعّشا منهم، من دون جدوى ..القاعدة تقول إن على هذه الطبقة ألا تنتج طبقة متحسّنة، إنّ على هذا الحيّ ألا ينتج غير طبقته ، غير فقاغ ملتصق بالأرض لا تمسّه الريح بجناحيها ..

ونظر إلى جمع من الفتيات السمينات تملأن الماء وسط ضجيج الأطفال وتزاحمهم - البقر ..يا لهنّ من بقر ..

وأحسّ بشدّة الحرارة تنقب رأسه وبالرّوائح الكريهة المنبعثة من سواقي البيوت الموحلة تحبس عنه التنفّس ففكر في اختصار الطريق إلى المنزل بالسّير بين البيوت ..ولم يقطع نصف المسافة حتّى وجد نفسه وجها لوجه أمام جماعة من الشّبان والفتيات يتذكّر وجوههم بدقّة ..ووقع نظره من أوّل وهلة على الأنسة الصّغيرة (لم يبق غير هذا ! ..وفي هذه الهاجرة !..وفي هذه الحالة النفسية ! ..النّاس هنا ينامون في القائلة ، وهؤلاء الشياطين !!.. ووقف من دون أن يشير إليه أحد بذلك وقد حدس ما سيكون عليه تصرّف هؤلاء الشياطين ..وفعلا لمح حمّادي ينفصل عن الجماعة ويتوقّف على بعد خطوات منه من دون أن ينبس بكلمة .ما الذي يستفزّهم فيه ؟ إن هذا الحي ملتقى لأخلاق من الناس تدفعهم الفاقة إلى الهجرة من داخل البلاد إلى ضواحي العاصمة يتخيلونها الوجه المضيء من البلاد تحقّق لهم العمل والأمل فيتكدّسون هنا بين الأزقة المظلمة نهارا في وحدة البؤس والألم .. ومع ذلك فما يمرّ يوم على وصول أحدهم حتّى يدخل في دين الطائفة ويضمحلّ كلّ نشاز .. ولم يفهم ما الذي يستفزّهم فيه ؟ وفكر في الأنسة الصغيرة وثراء أخيها ..لم قبلوها فردا منهم

؟ لم حموها ؟ لقد أطلق الكابيتان ك برّة الرصاص على حمادي الواقف أمامه ..ومع ذلك .. وحلت في ذاكرته صورتها يوم الاستفزاز الأول وهي ترشقه بنظرة تحدّ ..
 - أهلا .. أهلا ..ها أنت اليوم تخطئ فنزورنا هنا ..
 وتظاهر حمادي لحظة بأنه معجب بسرّوال شفروت الأسود الجديد
 - ألا تخشى أن تزورنا هنا فيتلوّث سرّوالك ؟ هذا الوحل !..
 وانحنى قليلا في حركة تمثيلية وهو يمسح شعره ويشير إلى الحذاء اللامع
 - تسمع، أرى وجهي .. ليس عندنا مرآة في الدار
 وانتصب فجأة وهو يحملق فيه بغضب
 - أتدري ما قال هؤلاء الأغبياء في المرّة الماضية ؟
 وانتقت إلى الوراء ينظر إليهم في سخريّة
 - قالوا إنني خائف ..حمادي يخاف ..وممن ؟ منك أنت ..كلّ ذلك لأنني قرفت من تأديبك ..
 وأودّ الآن أن أعرف تفسيرك أنت ..
 وانتقت أعينهما في حقد غامض الأصول ، وبدأت يدا شفروت الصغير ترتعشان وقد حلّ
 محلّ عدم اكترائه تصميم على التصديّ لهذه الشراسة العمياء
 - اسمع، هناك شيء أودّ أن تفهمه، وجيّدًا ..إنني أرتعش ولكن ليس خوفاً.. وإنني لست في
 شيء مما أنت فيه ..إنّ حقدك يصبّ في البحر ..لك أن تحقد ..إنّما عليك أن تهرق حقدك
 على صانعي الشظايا ..أمك ..ربّك ..أنت ..الكابيتان ك الدولة 00.هذه القحبة أمامك ..
 لست متنفسا للجياح في كلّ شيء ..
 وترنّح للحظة ثمّ سقط على الأرض، وخيل إليه أنّها تميد به ..وسمع صياحا من الجهات
 الأربع وتحسّس فمه فتلوّث أصابعه بالدم ..و"أوقفه "أحدهم وقد بدأ يعود إلى نفسه
 واعترضته امرأة بيدها منشفة مبللة تمسح وجهه وهي تصيح
 - يا حليلي ..يا حليلي ..ماذا فعل أيضا ..يريد أن يعود إلى السجن ..
 كانت بارزة العظام، مسودة الوجه من بقية وشام يغطي ثلاثة أرباع وجهها .وسمعها
 تنوسل إليه ألا يقدّم شكوى بابنها فافتّرّ فمه الملوّث بالدم عن ابتسامة باهتة، يقدّم شكوى!!
 واكتشف نفسه وسط جمع غفير من النّاس دفعهم الفضول إلى الخروج في هذه الهاجرة،
 فأحس بانقباض يعصر قلبه وقد تركّزت عليه كلّ هذه العيون البائسة، بعضها يرثي لحاله
 والبعض الآخر لا يهتم من أمره شيء .وسمع صوت عائشة يناديه من بعيد ثمّ يقترب ..
 وعندما أخذته من يده أحسّ فجأة باختفاء كل ألم أو حقد ووجد الشجاعة فحوّل نظره يتقرّس
 في هذه الوجوه ..ووقع بصره على الأنسة الصغيرة وسط حلقة المتفرّجين صامتة هذه
 المرّة، لا أثر في عينيها للتحدّي القديم ..وعندما اعترضتهما أم حمادي من جديد كان قد
 اختفى تمامًا من قبله كل اهتمام بما حدث وابتسم من جديد للمرأة الحطام وهو يقول
 - إنّ ابنك قوي !
 وفي نفسه شعر بثقل خطأ ما قدر له أن يقترفه.

(11)

لا أحد في الحي تشغله السياسة داخلية كانت أو خارجية باستثناء الأب الشيخ 0وهو لا
 يتحدّث في السياسة مع غير عائشة التي لا تكاد تفهم شيئاً من هذه الأمور وإن أظهرت
 اهتماما حتّى لا تجرح شعوره ..وأحيانا قليلة مع (موشي)، صاحب دكان بيع البيرة
 والخمور بالجملة في السوق ..وهذا اليهودي لا يتحدّث في مثل هذه الأمور بغير الألغاز ..

فموضوع السياسة بكلمة واحدة كان من المحظورات عند الناس لا يمسه إلا الراسخون في العلم (وهم بذلك لا يعدون الامتثال للتقاليد العربية الإسلامية التي تضع كل الأمور في يد الحاكم) سواء أكانت دينية أم متصلة بالتجارة بالرقيق الأبيض ..

اجتمعت العائلة الصغيرة في الصباح الموالي حول مائدة واطئة لاحتساء كؤوس من السحلب، في صمت. لقد اطمأنت عائشة إلى الشيخ بسرعة كبيرة لأنه كان يخفي وراء تحفظه أخلاقاً دمثة وتصورات عالية. مدّ الرجل يده إلى جهاز الراديو يفتحه فانطلق صوت مغنية تونسية فأعاد غلقه وهو يتمتم

- لقد حرّموا علينا حقّ التمتع بنعم التقنية ..

قام شفروت الصغير من مكانه وأعاد فتحه وهو يحاول أن يبتسم

- لاحظت أن عائشة تودّ الاستماع .. لا تتخيّل أن كلّ الناس مثلك .. السياسة دائماً! ..

وتمتت عائشة بدورها:

- أنا ليس لي مطلب ..

فوافق الشيخ:

- سامحيني ، أنا دائماً أنانيّ .. ولكنني لا أحتمل هذه الغربان تنوح منذ الصّباح .. عن الحب .. ولم يبق شفروت الصّغير غير مدّة احتساء السحلب فخرج للدراسة .

والتفت الشيخ إلى عائشة وهو يتسمّع ابتعاد خطوات ابنه:

- هذا الولد متعب .. لقد أتعب أمه المسكينة حتّى لا أشك أنه ساهم في قتلها ، وأظنّ أنّه سوف يتعبك ..

- أنا يا سيدي شبه ضيفة ولا ..

- لا .. لا تقولي هذا .. أنا أحدثك عن الماضي حتّى لا تكوني صورة خاطئة عني وعن ابني .. حتّى لا يقع تصادم ..

- أنت طيب يا سيدي ولن يحدث ما تخشاه ..

- شكراً لك على هذا الشعور .. إنّما لا أودّ أن توّولي تصرفاته سيئاً .. أنا على يقين أنّه لن يصطدم بأحد ما لم يستفزّه .. لقد غضب الآن لأنني أشعرته من دون قصد بميلي الدائم الى السياسة .. هو يرى أنني أفلسف إفلاسي المالي وأهرب في السياسة .. هذه آراء أمّه .. لم يوافقها أبداً في غير هذه الفكرة كونتها عني .. كأنّ السياسة ليست هي الماء بالنسبة إلى الأحياء .. هل تظنّين أنني مخطئ ؟

- أنا جاهلة يا سيدي ..

- لا تقولي هذا .. جهل زوجتي لم يمنعها من إلغاء اشتراكي في جريدة (الصّباح) رغم أنّها جريدة إخبارية تجنّب ما يذاع من أسبوع في الصحف العالمية .. هل تعتقدين أن إفلاسي سببه اهتمامي الكبير بهذه الأمور ؟

- يا سيدي، أقول لك الحقيقة - أنا جاهلة، إنّما أعرف أنّ التجارة قريبة جداً من السرقة، هي تتطلب نوعاً خاصاً من البشر ..

- هذا صحيح .. كنت دائماً أشعر أنّه ينقصني الحزم في المعاملات .. لكن ..

وضيق فجأة ما بين حاجبيه وهو يحاول القراءة في عينيها:

- ماذا كنت تقصدين ؟

- لقد اشتريت منّي الدار يا سيدي ، ومع ذلك أبقيت لي قسطاً فيها .. هذا تصرف غير تجاري ..

- آه ..ولكن هذه المسألة شيء آخر ..

وبعد تفكير :

- هذا العالم ينقصه التضامن الحقيقي ..

- وهل من أجل هذا تتابع السياسة ؟

- من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى ..

- إذن لك الحق يا سيدي ..

- هذا ما لم ترد زوجتي الإيمان به ..رحمها الله ..

وغضّ من بصره في تأثر

- كانت تصفني بالعجز في كلّ شيء ..كانت ترى اغتصاب الثروة بعد الاستقلال ..طبقة

تونسية تعوّض أجنبية ..وفي ثورتها تسبّ الدنيا التي قضت عليها بأن تكون زوجتي ..

ولكنها مع نفسها كانت تحبّي ..أنا على يقين من ذلك ..لم تكن فقط تتحمّل أن ترى أعمالها

تتدهور بسرعة ..كان يخيل إليّ أن قوى جبارة تضامنت من أجل هدم ما ورثته وما بنيته

يشق الأنفس ..أتفهمين الآن لم يغضب ابني كلما كان حديث عن الحكم والقومية العربية؟ إنها

ذكريات أمه ..ولو فُكر بمفرده ما كان تصرفه يكون من هذا القبيل ..

- هو شاب يا سيدي ومازالت أمامه الحياة ..

- شاب، كيف هذا؟ هو الآن في السابعة عشرة ..سيجتاز البكالوريا في السنة القادمة ..وإذا

كان في هذه السن يهرب من الدنيا ومشاكلها ففي أي سنّ يهبط إلى الأرض؟ الخيال شيء

حسن ولكن الحياة شيء أحسن ..

- ولكنه لا يضرّ بأحد ..

- نعم .وهذا هو ما يقلقني ..لأنه بذلك يصير هدفًا لمن لا يفهمون طبيعته الهروية ..هل

تتخيلين أن في مكانه في هذا الحي أن يتعايش مع من أنتجتهم الحانة من متسكعين؟ وفي

الحياة حيث يموت الضعيف على كلّ المستويات في غفلة من القانون ، أظنّين أن في مكانه

أن يشقّ طريقه؟ إنّ الحياة سياسة رغم كلّ شيء ، صراع، قوة تكاد تكون جسدية، ..أما

الهروب ..أما الفلسفة ..أمّ رؤية الأشباح حيث لا أشباح فذاك تدهور يشي بخلل أساسي في

تكوين الإنسان ..

وتذكّر شيئًا ما فوضع رأسه بين يديه وبعد مدة انفجر ضاحكا

- لقد نسيت أنني أيضا إنسان مفلس ..

وصمت مرة أخرى ثم تمتم:

- إننا متشابهون ..إننا إنسان واحد ..

- ستبني ثروتك من جديد ..

- هيهات ..

- سينجح شفروت الصغير ككل الناس ..

- ماذا؟ شفروت الصّغير؟

- سامحني يا سيدي، لقد أخطأت، أودّ أن أقول ابنك ..

- وهذا الاسم؟

- لا شيء ..اختلطت عليّ الأمور ..

- ينجح بخياله المرضي ذاك؟

-ولو!

- هيهات ..
ولم تجد المرأة ما تقول (ما هذه العائلة المتطيّرة ؟
- سأسافر لمدة أسبوع .. أرجو أن لا يقلقك غيابي .. أعطه بعض المال ان طلب ذلك منك ..
ولكن لا .. هو لن يطلب .. هل لك زيارات تقومين بها ؟
- لا ..
- حسنا ..
وقام يغسل يديه .. وبلغها صوته آخر الغرفة خافتا:
- هل لك أن تحاولي التقاط (صوت العرب (يا عائشة .. لا شك أن هناك تطورات في قضية
فلسطين ..

(12)

في ليلة ما انتزع شفروت الصغير من نومه صوت باب الغرفة يغلق برفق . ركز سمعه في
صمت منتصف الليل مدّة وتيقن أنه خيّل إليه سماع هذا الصوت . إن عائشة لا شك انائمة
الآن وموقع الدار في شبه اعتزال لمنازل الحيّ يجعل من العسير أن تختلط عليه الأمور ..
إلا .. إلا إذا كان الأمر متعلقا بسارق . ولكن أيّ سارق فقد عقله إلى حدّ المخاطرة في سبيل
هذا العدم المادّي الذي يشتمل عليه البيت ..؟ ولكن .. أليس قطاع الطرق طبقات هم أيضا؟
وحاول أن يقرّ رأيه على هذا التفسير غير أنه سرعان ما ارتدّ إلى شكّه الأوّل فردّ تخيّلته
إلى ضعف أعصاب وعمل على أن ينام . كان في أثناء الجهد الذي يبذله لإغماض عينيه
يحسّ أن من المرض الشكّ في كلّ شيء ... وغلبه الشكّ فانتصب واقفا وهو يلعن نفسه
المريضة وأخذ يذرع في المشي في الغرفة جيئة وذهابا .. واجتاحه شعور بالذنب لا
يدري مصدره بالتحديد وتخيّل موقفه لو لم يسافر أبوه وراه على هذه الحالة .. وحتّى عائشة

لو لم تكن نائمة، ما كان يمكن أن تظنّ به؟ أليس ذلك كافياً لتعميق الرأي الذي كونته عنه وعن غرابة تصرّفاتة؟ وتوقف أمام الباب وقد طرأ عليه هذا التخيّل وبعد لأي وضع يده على قبضة الباب ثم وقف مدّة لا يبدي حراكاً وأدار القبضة في جهد نفسي لا يطاق ..

وخيل إليه أنّ صوت الباب الميّت صخب هائل، ووجد نفسه أمام عائشة وجها لوجه. وتشبّث نظره بالأرض وقد حال وجهه .. والمرأة أيضاً تعلقت عيناها بالعقد القديم. وبهر عينيه في الظلام صورة الأنسة الصغيرة وهي تتحدّاه .. ثمّ سمع شفروت الكبير في السجن يقول له بعد تفكير، الأنسة الصغيرة رائعة حقاً. وغارت عيناه في أرض الظلام وجمد لسانه فكأنّما هذه المرأة الواقفة أمامه قد حدست كلّ ما دار بخلده منذ ولد فلم يعد هناك مجال للكلام ..

والمرأة تقف أمامه .. أيّ زمن في حياتها حقق له السعادة؟ صباها؟ شبابها؟ حياة الزوجيّة القصيرة؟ حياتها الآن؟ وعلى من تحسب هذه الحياة التي تصبّ البحر؟ إنّ في الحياة آلاماً أكبر من الشمس .. وعمل على توضيح الموقف في فكره فتجلّت أمام عينيه صورة أبيه وأحسّ بوخزة في عروقه رأسه ورفع يده من دون وعي إلى وجهه يتحسّس موقع اللكمة التي تلقاها من حمّادي فأرجعها مبلّلة بشيء تخيّل في الظلام بلون الدم .. وفجأة خيل إليه أنّه يسمع صراخاً فحاول ألاّ يحفل بهذا الصراخ وقد استوت عنده الأمور وبدأ يشكّ في كلّ حواسّه. وتزايد الصراخ وتزايد دوران رأسه وأحسّ بيد توضع على كتفه

- هذه .. هذه مشاجرة جديدة .. الوقت صيف .. كالعادة ..

ورفع رأسه قليلاً وقد مدّت إليه عائشة يد العون ثمّ قال بتصميم على غير عادته:

- أنا خارج .. أودّ أن أرى ما يحدث ..

ومرّ من أمامها وهو يبذل جهداً حتّى لا يلمسها فأوقفته وهي تقول:

- تذهب إلى أين؟ في هذه الساعة ..

فقال وكأنّه لم يسمع:

- قد لا أعود إلّا في الصباح .. أنا في حاجة إلى الوحدة.

أغلق باب الدار .. وعادت المرأة الشابّة إلى عقدها تتلهّى به ثمّ انفجرت بالبكاء ..

(13)

كان المؤدّب يوسف سكرانا مينا هذه الليلة يعيد للمرّة الألف في الحانة اسطوانة شجرة أنسابه الشريفة .. هو أيضا ليس تونسيّ الأصل !! وإذا كان الذين لا يعرفون تركيا أو اليونان يدّعون بفخار أنّهم ينتمون إلى هذا الجنس أو ذلك دون أن يكفوا أنفسهم عناء زيارة هذه البلدان، فالمؤدّب قد عثر بعد دراسة في الكتب الصفراء على اسم بلد جديد، الأندلس (لا شكّ أنه مازال يتخيّل وجود بلد بهذا الاسم يمكن أن يعيش فيه كما تعيش السمكة في البحر .. دليله الوحيد على انتمائه ذلك لون بشرته ولون بشرة زوجته وابنته سعاد .. حتى الطبيعة عجزت عن تغيير هذه الملامح المميّزة في ظرف خمسة قرون!! ولا يهّم ما انحدر إليه أصله الزكيّ ، الفقر والجوع عارضان .. إرادة الرحمان .. وهذا التفسير لا يمنعه أبدا من السكر حدّ القياء .. والناس رغم ذلك يبعثون إليه بأطفالهم .. لا شكّ أنّ ذلك مرده إلى استواء الأمور عندهم، الدراسة عند المؤدّب أو عند الدولة شيء واحد .. وما الفرق بين طفل يدرس في الكتاب وآخر يطرد من الرابعة ابتدائيّ؟ .. الأمر واحد، خصوصا أنّه لا يطالب بأجرته في شكل معيّن (يمكن أن يسدّد الأب ما عليه في شكل ثياب أو مال أو حتى جعة فكلّ الأمور تستوي هنا والكثير لا يدفعون مقابل شهرين أو ثلاثة إلاّ أجرة شهر واحد لا يفي بسكرة كالتي تشهدها معدة الرجل هذه الليلة ..

ولكنّ) بوسن الحقير (عند كلّ الناس صديق حميم لهذا المؤدّب السكّير , لا يطالبه بشيء ..
ولا أحد في الحيّ يجهل سبب ذلك .. لقد تعودوا منذ زمن بعيد على هذه الأمور حتى
صارت عادية .. كان يكفي أن يجلس إليه مدّة يسمع باهتمام كلّ كلمة يتفوّه بها المؤدّب
مبتسما بين الحين والآخر مقدّما إليه مزيدا من الجعة حتى يحصل الشعور بالقيمة للمؤدّب
واليقين لـ) بوسن (الحقير أنّ الرجل لن يحرّك طرف إصبعه في اتجاه الدار ما لم تغلق
الحانة فيستأذن لشغل ما ويختفي عن أعين الشاربين .. وإذا كان الناس لا يجهلون شيئا
يدور بين جدران المنازل الحيّ فهم غالبا ما يميّزون بفعل عوامل عدّة بين بغاء امرأة
وأخرى , بفعل الجمال , بفعل المقاومة (وكلّ امرأة يصعب نيلها تثير في مجالسهم اهتماما
أكبر . عائشة مثلا، وقد كاد الحديث عنها ينعدم لانعدام ظهورها قي الخارج .. زوجة المؤذن
بما يحيط بها من تسبيح أسطوريّ حول أصلها الزكيّ وخصالها الكروموزومية ، هذه
الإسبانيّة من دون جنسيّة زوجة) (الاسباني (معلّم الصبيان الذي لا يتمكّن من تحريك أحد
أعضائه حتى يسقط بتمامه .

وتعلقت الأنظار بـ) بوسنّ (الحقير وهو يتسلّل إلى الخارج وعلى ثغور الجميع ابتسامة
موحّدة .. وتجاسر حمّادي فناده مرّات عديدة حتى وقف قبل خطوة من الباب ينتظره، لكنّ
الشاب لم ينهض وناداه من جديد، فكشر الخمّار عن أسنان أكسبتها البوخة والدخان لونا
خاصّا وهمّ بالخروج . عندئذ قام حمّادي واتّجه نحو الخمّار وسرّ في أذنه كلمات ..

- مرّة أخرى .. مرّة أخرى .. أنا الآن على عجل

- الآن أقول لك .. أنا لا أملك مليما واحدا وأريد مزيدا من الشراب ..

- اسمع حمادي، زد من وقاحتك وسأوقفك عند حدّك ..

- هذا إذن .. اسمعوا أيها الرفاق ما يقول .. عندما تقدّمون خدمة ما، هل تقدمونها مجانا؟

فأجاب جمع منهم مازحا:

- هذا مربوط بنوع الخدمة ..

لقد طلب إلينا تكسير (شفروت الصغير، الشابّ الجديد في الحيّ .. وهو الآن يسوفني ..

وضجّ القوم في الحانوت مرّة واحدة .. صحيح أنهم لا يرتاحون للساكنين الجديدين، ولكنّ

التاجر لم يظهر عليه إلى حدّ الآن تصرف يجعله عرضة لكلّ راغب في صبّ غضبة على

الناس .. و)العركة (بين حمادي و شفروت الصغير ظهرت للكلّ يومها نتيجة استفزاز معهود بين الشبان العاطلين يبحثون دوما عن متنفس لكبت ثقيل و حياة بلا أفق ..

- هذه هي الحقيقة .. وهل كنت أعرف هذا الشابّ فأتعرّض له؟

ولم يكمل كلامه لأن بوسنّ انقضّ عليه من دون كلام وصفعه بينما أسرع النادل فشدّ يد

حمادي إلى ظهره وهو يلويها بوحشيّة .. وتدخّل الناس بين المتشاجرين ففصلوهم عن بعضهم البعض وقد تحوّلت الحانة الى معترك باتّم معنى الكلمة .

- لا تصدّقوه .. هذا المجرم .. أنا بوسنّ أفعل هذا ! أستم تعرفونني ؟ ألسنت أقدمكم في الحي ؟

(القدعان (يعرفونني ويحترمونني ..حتى يأتي هذا الوغد وليد الأمس ..

- وليد الأمس يا موبون؟ إنني سأكسر ضرسك المذهبة حتى تجعلها حديدا مقابل الصفحة ..

الرجال بحق يعرفونك؟ قل لي من هم رجالك أيها القذر ؟ أهم هؤلاء ؟

وأشار إلى المؤدب بيده وقد وقف بعيدا محمراً الخدين :

- اتق الله يا ولد .. هذا محلّ الكبار ..كيف يفعل سي بوسن ما تقول ؟ اتق الله ..

وتحوّل غضب حمادي إلى المؤدب وهو يسمعه يتحدّث بهذه اللهجة الدينية :

- أيها الوغد (وتتحدّث عن التقوى!! وتقول سي بوسن!! كلكم أسياد الآن!! أصبحتم كلكم

أسيادا .. !

وازداد غضبه حدّة فشدّ المؤدب من شعره وبدأ يدفعه بحقد

- اسأله عن زوجتك .. اسأله ..كلكم أسياد ..أنا الحقير الوحيد فيكم الآن ..أرأيت لم يدفع

مكانك ثمن الجعة ؟ كل قارورة بجماع ..ها ..ها ..الرجال! وترك المؤدب غارقا في

استعادته والتجأ إلى مؤخّرة الحانة وتدرّع بكرسيّ وقد رأى بوسنّ يستلّ عصا مكنسة ويهجم

عليه في جنون ..

وتدافع أكثر الشاربين نحو عتبة الباب فاصطدموا ببطن (سي صالح (الضخمة تسدّ فتحة

الباب ..واستلّ الشرطيّ عصاه الإدارية وهو يتقدّم من المتشاجرين ثم صاح بلهجة أمرّة

- هيا ..كفى ..كفى ..

كان مقدم الشرطي رحمة لـ) بوسنّ (فامتثل بسرعة كبيرة وأسرع إليه يفهمه كل شيء بينما شعر حمادي باستواء الأمور، فحلّ المشكلة الآن أصبح مرتبطاً باتفاق) بوسنّ (وصديقه الشرطي وقرر أن يواجه الجميع .

- صحة ، يا سي الشاب .. هكذا تظهر أن الإصلاحية لم تهدّب منك شيئاً .. تتهجم على صاحب الحانة وتتهمه بقطع الطريق .. وتضربه .. ألا قل لي، هل أنت أسد تصول وتجول في هذا الحيّ من دون عقاب؟ بالأمس ضربت ابن المالك الجديد .. - انه) بوسنّ الحقير (الذي أوحى اليّ بذلك .. - تكذب ..

- اسأله .. هل أصبحت تتكلم باسمه وكأنكما شخص واحد .. قم بواجبك!
وتتنح الشرطي وهو ينظر إلى حمادي شزرا :

- ستري .. ستري .. هل صحيح يا سي بوسن ما يقوله هذا ..
- هذا الكلب .. وكيف يمكن أن تتركه يتكلم؟! هل يمكن أن يصدر الصدق عن لسان هذا الشرير؟
وتدخلّ المؤدّب ..

- يا سي صالح .. وأنا الذي تعرفني .. هل آذيت أحدا مرة؟ هل أضرت بأحد؟ هل سمعت عني شيئاً لا يشرف؟ قل، هل سمعت؟
- لا يا سيدي المؤدّب ..

- هذا المجرم .. هذا الشقيّ وجد الشجاعة لاتهام زوجتي على مسمع من كل الناس ..
- هدى من روعك يا سي يوسف .. هذا الشاب تعرفه .. لقد تخرّج على يديك وأنت تعرفه ..
انه سوء المخالطة .. اذهب فاسترح فأنا أراك متعباً وستري أين يبببب هذا الكلب الليلة ..
واتجه الشرطي إلى المؤدّب فأخذ بيده وقاده إلى عتبة الباب وهو يترنّح ثم عاد إلى حمادي :

- قل يا سيد .. وبعد ذلك تجيئني أمك باكية إلى الدار تطلب لك العفو ..
- وقر عليك هذا الكلام .. لن تجيئك هذه المرة ..
- يا وقح ..

- لقد أثبتت الجعة المجانية فعاليتها في كل الجهات ..

واقتبل حمادي صفقة قويّة على خذّه فتراجع إلى الوراء وهو يهدر :

- اسمع يا سيد .. هذه آخر صفقة الليلة .. إنني أحذرك ..

- تهدّدني؟

- هذه آخر مرة .. هذه البدلة لا تعطيك حق الصفع .. ولا حق التمعّش ..

وشدّ يد الشرطي قبل أن تصل إلى وجهة مرّة أخرى

- قلت لك كفى .. ماذا تظن نفسك أيها القدر؟ أعطيناك بعض الوهم بقيمتك فاستحال ذلك

عندك يقينا .. اذهب أنت أيضا واسأل زوجتك فلربّما وجدت نفسك والمؤدب شخصا واحدا ..

واصطدمت عصا الشرطي بالكرسي الذي يتدرّج به حمادي وتزايد الصخب واتحد حامي

القانون وديك الحي ونادله في جبهة واحدة ضدّ الشاب الهائج بينما تدافع الناس إلى الخارج

يطلبون الأمن ..

في الخارج اعترضهم جمع من الناس يتجهون نحو الخمارة يتوسّطهم شيخ الحيّ الضخم

يتمايل في جبة فضفاضة والناس يزدحمون حوله كلّ منهم يقدم رواية خاصة لما حدث

وهو وسطهم لا يبدي اهتماما واضحا بالأمر .. كان يكتفي بهزّ رأسه في كلّ مرّة علامة على

تتبّع ما يروى له، وأحيانا يجود على أحدهم بابتسامة حزبية دستوريّة ترتسم على وجهه

المنتفخ المخطّط ببقايا حلّاقة ووشم قديمين (وهذا الرجل المكلف بوظيفة الشيخ ليس مجرد

حامل للقب لا معنى له عنده خارج ما يدرّه عليه من أسباب عيش .فهو يظهر للناس مؤمنا

شديد الإيمان بدوره، تلمح ذلك في حركاته وهو يخطو بين البائعين والناس في السوق يوم

الأحد مبتسما لهذا حارما ذاك من ابتسامته الحزبية الدستورية، تلمح ذلك من كلامه المتحفّظ

من دون أن يكون الرجل عيبا، من طريقة لبس جبّته وبياضها الناصع لا تشوبه شائبة في هذه

السوق القذرة، من احتفاء معاونه يسبقه دائما للإبلاغ بقدومه الى محلّ ما في جوّ من أجواء

التشريفات .. وهو رجل قويّ الذاكرة ككلّ معتنقي الدستورية لا ينسى أبدا أن يذكر من

يجادلهم بأنّ الرجل الذي خوّله القدر مشيختهم ليس ككل الناس لأنه ناضل يوم كان الناس

يحيون كالفطر، رجل لبّي نداء الرئيس من أول وهلة (وتقطع الأنفاس وهو يذكر الرئيس في

آخر الجدل بالضبط 0الرئيس هو الوسيلة السحرية عندما يحتدم الجدل ..ولا يدري الناس ما محلّ هذه الذكريات من سياق طلباتهم اليومية ..

لقد أسرع هذه الليلة بالقدوم حالما بلغه خبر الشجار لأنّ أطرافاً فيه من أعيان الحيّ ولا يحسن به هذه الحالة أن يكتفي بإرسال معاونه ..واعترضه المتشاجرون كل يسرع بعرض ما حدث .

- يا سيدي الشيخ جاء بك ربي ..لقد أكلنا هذا الوحش ..إنه يريد قتلي ..كل الحاضرين يشهدون بذلك ..طلبت منه أن يدفع ثمن ما استهلك فغضب وضربني .
- أنا أشهد بصحّة ما يقول سي بوسنّ يا سيدي الشيخ .. أنا أيضا لم أسلم من شرّاسته ..كنت أحاول تهدئته فما كان جزائي؟ لم يحترم حتى بدلة (الحاكم (واستلّ مني عصاي ..انك قدمت في الوقت المناسب ..

كان حمادي بعيدا عنهم، يسمع هذه الشكاوى وقد ارتسمت على وجهه علامات الحقد والاحتقار .فناداه الشيخ وهو يضع يديه وراء ظهره :

- هيا تقدّم يا سي الشاب ..هل صحيح ما يقال؟

- ما فائدة أن أعطيك رأيي؟ سوف لن تصدقني ..الأحسن أن تسأل الحاضرين ..

طاف الشيخ بعينيه في لمة الحاضرين مستفسرا فلم يعثر على متطوّع 0لقد كانوا يعرضون عليه رواياتهم قبل ربع ساعة والآن فقد كل واحد منهم لسانه .
- سوف أصدق ما تقول إن لم تكذبني القول ..

ولم يصدّق حمادي أذنيه ..هل صحيح أن الشيخ سيتخلّى عن أصدقائه لنصرة خريج إصلاحية .فليجرب !.. واقترّب من الشيخ وهو يحاول أخذ يده فصدمه صوت نباحه القصديري المتبرّم

- لا تلمسني ، تحدث من هناك ..

كبح الشاب غضبه وخرج صوته من بين أسنانه صغيرا
- لقد كذب الخمار وصاحبه ..هذه هي الحقيقة ..

وصمت على هذه الكلمات ..وضربه الصوت من جديد
- أسألك كيف كانت الحادثة ؟

فاستسلم حمادي ولم يجد بداً من الإشارة إلى (الخدمة) (التي قدمها لبوسن

- رفض أن يسدّد ديننا كان عليه ..

- وكيف يمكن أن يكون عليه دين؟

- كلّفني بالتعرّض لشفروت الصغير مقابل بعض المال ..

وصرخ بوسن وقد تملكته نوبة هستيريا

- لا .. لا تصدّقه .. هذا المفلس .. لقد اختلق هذه الحكاية .. كيف تترك هذا الوغد يتكلم ..

اسأله إن كان له دليل على ادعاءاته؟

- ليس لي سبب شخصي للتعرّض لشفروت الصغير ..

- سبب شخصي .. سبب شخصي .. ترى من أين يعيشون؟ من البطالة؟ كل الحيّ يعرف أنك

تنتسلط على الناس وتعيش عالية عليهم كان لك معهم سبب شخصي أم لم يكن ..

- يا سيدي الشيخ .. امنع هذا السكير من الكلام .. لقد سمعت شكواه فاسمع شكواي ..

- يا سي بوسن، من فضلك، خلّ الرجل يتكلم ..

- أقسم بالله يا سيدي الشيخ أنني أقول الحقيقة .. هذا ما وقع .. طلبت منه حقّي فرفض

وصفّني (ما من أحد يمكنه أن يصفّني من دون عقاب ..

وتدخّل الشيخ :

- خلّ عنك هذا الصلف وإلا صفّعتك ..

- باستثنائك أنت سيدي الشيخ ..

وخزر الشيخ حمادي وهو يسمع ضحكات مكبوتة ..

- وحكايتك مع سي صالح؟

- قالها وهو ينظر إلى رجل الشرطة الذي يطمح إلى منازعته السلطة في هذا الحيّ ..

- آه سي صالح .. لم يترك لي فرصة للحديث .. لقد وعد المؤدّب بأن يبيّتي في السجن،

هكذا! ..

وتدخّل الشرطي:

- ولم وعدته؟ ألم تضربه؟ ألم تضرب هذا المؤدّب فخر الحيّ؟ قل أنك لم تضربه؟

- رويدك .. رويدك .. هل تودّ سيدي الشيخ أن احكي لك قصة هذا المؤدّب ..؟

حكّ الشيخ رأسه وقد بلغت الفضيحة قمّتها التي لا تقبل المزيد، فالشيخ كُغّل من في الحي يعرف نوع العلاقة التي تربط بوسن بالمؤدّب، وهو ان قصد استغلال هذه الحادثة لتقوية مركزه على حساب سي صالح فليس من المستحسن عنده أن تتطور الأمور

- يا سي بوسن، دعنا من الأحقاد ..ألَسنا سكان حي واحد ؟ هذه عشرة عشرين سنة أنصحك بالعمل بما أقول ..حمادي في مكان ابنك وان تجاسر عليك ..هيا تصافحا..

وتردّد بوسن مدّة كأنّما اضطربت الأفكار في رأسه فلم يصل إلى قرار .وفجأة تقدّم من حمّادي مادّا يده وعلى وجهه ابتسامة مصنوعة صنعُرسه المذهّبة

- إنّ قلبي صاف عليك يا حمّادي ..

- هيا سي صالح ..

- لا ..سأقدّم تقريراً للمركز غدا..

- أيّ تقرير؟ خذ بنصيحة رجل مجرّب مناضل ..هل تودّ أن تتطوّر الأمور؟ أفضعه يا سي بوسن)

- سي صالح ..باسم صداقتنا ..قلب المؤمن صاف ..

وانتحي الشيخ والشرطيّ والخمّار مكانا يتهامسون وبعد مدّة نادى الشيخ حمادي

- هيا يا ولد ..بس عمّك صالح ولنطو صفحة هذه الليلة المشؤومة.

كان الشيخ في أحسن ساعاته ..لقد حققت له هذه المشاجرة أملا كبيرا،فسوف لن يرفع سي صالح رأسه بعد الآن وقد علم كل الناس بتورّطه مع الخمّار ..ولن يبقى بوسن على صلفه القديم وقد افتضح أمره مع زوجة المؤدّب .وفيما كان الشيخ يغادر المكان برفقة معاونه ناداه صوت:

- والمؤدّب؟ ألا تصلح بينهما؟

فتوقف الشيخ لحظة مفكّرا ثمّ واصل السير

- المؤدّب؟ اتركوه ينام !..

(14)

تباعدت أضواء الحانة كلما أوغل في الخلاء ولم يبق من أصوات تضرب سمعه غير وشوشة حلقة أو حلقتين من الشاربين بقوا يجترّون حوادث الليلة المليئة بالمشاجرات والفضائح وقد طار النوم عنهم فاقتعدوا الأرض أمام الحانة الصامتة . ولم يبتعد كثيرا حتى تحولّ الضوء إلى نقطة نور صغيرة وتآكلت قامات الساهرين في عينيه فكوّنت نقطة سوداء وسط شبه ضياء ينسخ الكتلة الهائلة من الأرض السوداء حيث يرقد الحيّ وبعض الآلاف من السگان.

كان ينظر من حين إلى آخر وراءه وهو يتابع السير في الظلام فكأنه وجد وسيلة لإبعاد اهتمامه ولو إلى حين بما سمع من حمّادي وغيره من المتشاجرين .. يا إلهي، كم ينام هؤلاء الناس على أطنان من الألم والحقد والكبت .. إنّ في العالم حقائق بعدد سگان الأرض تتصارع خفية وأحيانا في العراء لكنها لا تخمد أبدا لأنّ مرجعها كبت متأصل في عروق الزمن يطلب له متنقّسا في تحطيم كلّ سدّ يعترضه .. وحاول أن يتعمّق الأسباب التي حدثت صاحب الخمارة أن ينسج هذه المؤامرة التي نفّذها حمادي بثمن بعض زجاجات الجعة فوقف فكره قاصرا . هل بإمكانه أن يحدس أنّ مقدمه هو وأبيه قد أثار في نفوس الناس أكثر ممّا يثيره مقدم مشتر جديد ينعدم في أيام في جنس القوم وأخلاقهم فيضفي عليه ذلك قدمة بينهم؟ .. واستعادت ذاكرته في لحظة قصّة الاستفزاز بكلّ ما رافقه من حركات وغمزات ونظرات حقودة، وتذكّر أيضا سارة ، الأنسة الصغيرة، هذه الفتاة المتوحّشة تهرب للحيّ كلما هدّدها الكابتان ك بسجنها في البناية وهي تفهقه لمنظره إذ أوسع الخطى مبتعدا عن المعتدين .. لشدّ

ما حقد عليها إذاك .. ثمّ أحسّ بعد ذلك وهو يصطدم بالجماعة من جديد ولسبب غامض أن حقه عليها ذهب جفاء، رغم أنّها كانت مع الجماعة هذه المرّة أيضا .. رآها عندما اعترضه حمادي ورآها ثانية وهو يرفع وجهه الدامي يطوّف بعينيه في الحاضرين قطع عليهم قائلتهم خبر ذلك الصدام ..

واصطدم فجأة بشيء ملقى على الأرض فسقط . وتحسّسه فإذا هو جذع خاو . وبقي مدة لا يبدي حراكا ثمّ سار ليعود بعد لحظات فيجلس على الشجرة الميّتة (لقد اختفت كل الأضواء الآن وحتى البناية أمامه ليس فيها غير نور ضئيل يتسرّب من نافذة حجرة في الطابق الثاني .. لاشكّ أنّه ضوء شموع . كان الصمت مخيّمًا على الدنيا وقلبه معا وكانت نسيمات نديّة تثير

شعر رأسه في غير عنف . سيقوى هذا الندى مع الأيام القادمة فيخرج من الأرض رائحة النبات الهالك و سيشق الماء خطوطا واضحة في السطح فيسجن البناية الحزينة .. أخرج سيجارة من جيبه وبحث مدّة عن عود ثقاب . وعندما أشعل النار أحسّ بلذّة الليل يملك كلّ شيء .. لاشكّ أنّ سارة قد نامت .. وإذا كانت هي التي أشعلت الشموع ؟ لن يستغرب شيئا من هذه الفتاة المحيرة .. وتركز نظره على النافذة الشاحبة لا يبرحها قيد أنملة .. وتشكّلت أمام عينيه الغرفة بأثاثها ورأى سارة أمام طاولة تقوم بعمل ما .. وحاول أن يجد موضوع اهتمامها فاختلطت عليه المفاضلات .. سأقترب منك أكثر علّني أراك أيتها الفتاة الشيطانة .. لقد كذبتك قهقهاتك .. أنا على يقين أنّها خاوية ..

وقام لحينه يسير مقتربا من البناية وهو يحدّق في ظلام الأرض حتى لا يتعثّر في شيء وقد غادر الشعاب وتوغّل في المزرعة . الآن امتلأ قلبه بسارة .. لقد اختلطت بالأرض والهواء وأصبح يحسّها في السيجارة الفانية بين أصابعه .. لن تنامي بعد الليلة يا سارة .. إن كنت بحاجة إلى قائد يقود أشرار الحي فسأكونه .. وإن كنت بحاجة إلى حارس يرقب ضوء نافذة غرفتك الشاحب فسأكونه .. إنني أعرفك منذ زمن بعيد أيتها الشيطانة .. ومن أجل ذلك كانت قهقهتك لفقد الذاكرة .. ستندى هذه البقاع بالماء وسيخفي النبات الذي لا يموت هذه التربة العطشانة ولكنني سأمنع خيوط السيل من أن تسجنك في بناية الكابتان ك . لأنه ما من حق لأحد عليك، لا حمادي ولا سكان الحي ولا الكابتان ك .

وضرب سمعه نباح كلاب بعيد فتسمّر في مكانه لحظة .. وتحركت رجلاه من جديد نحو الكلاب لأن هذه التربة قتلها العطش حلّ الصمت بهذه البقاع .. في الشتاء لا يخلو الليل من قطرات المطر تضرب جسدك المتصلب .. يجب أن يتبدّل هذا .. ولا يخلو الليل من غمغات الرعد إنك من دون هذه المرافق ميّنة لا محالة ..

وتوقف ثانية وقد ظهر أمامه كلب كبير في حجمه يهجم عليه، يدور به، يحيط به ولم يجد إزاء هذا التهديد سلاحاً وشلّت غريزته . غير أن الكلب اكتفى بالوقوف أمامه يقطع عليه الطريق . وطرق سمعه صوت نسائي مازال بعيداً :

- بوبي، أين أنت؟

فاجتاحت جسده رغبة نشوة وهو يسمع صوت سارة ولم يتمالك أن صاح:

- سارة!!

ووقفت الفتاة على أمتار منه وقد غلبتها الدهشة:

- شفروت الصغير، أنت إذن؟

وبعد صمت قصير اقتربت منه خطوات وهي تمرّ يدها على شعر بوبي

- إلهي ، ما الذي حملك على التوغّل في المزرعة في مثل هذه الساعة؟

وأحسّ أنه عييّ عن الكلام ووقف صامتاً يرقب آخر أشلاء نشوته تتبخّر

- شفروت الصغير، كان يمكن أن يكون الكابتان ك . هو الذي أخذ الكلاب لتفقد المزرعة وقد سمع نباحها .. لقد أغفلت أخذ المصباح حتى لا يعترضني .. أنت هو إذن؟

وشفت لهجتها وهي ترى ضياعه فاقتربت منه أكثر محاولة أن ترى وجهه بوضوح

- قل لي ما بك؟ هل أقمت كلّ هذه الضجّة من أجل الوقوف صامتاً هكذا؟

- سارة!

- نعم

- سارة، هل ستصدقين ما أقول؟

- نعم

- كنت أهيم في الليل .. هل تلك نافذتك؟ لقد أحسست فجأة أنني أودّ أن أراك ..

جثت سارة بجانب بوبي تداعبه وقالت:

- هكذا .. ألم يخطر هذا ببالك في غير هذه الساعة؟ أليست تراني كل يوم في الحيّ؟ فلماذا؟
- لا أدري ..

فانتصبت واقفة وبقيت تنظر إليه مدّة 0منذ قدم الحيّ لم يكن حتّى لينظر إليها، وكانت تحسّ به سارة أعمق الإحساس .. تساءلت مرّات ما يمكن أن تكون عليه النفسية التي ينطوي عليها هذا الفتى الصامت الذي يكاد يخاف أن يقربه أو يحدثه أحد .. لقد شهدت فصلي المعركة التي مثل فيها شفروت الصغير دور الغبيّ يؤخذ على حين غرة، في المرّة الأولى متفرّجة ساخرة كل ما يهّمها هو خروج البطل مظفرا بأية وسيلة من الوسائل، وفي الثانية بأعمق من ذلك 0لم تكن لتفهم سبب تلك اللدّة الواضحة في عينيه وهو يرفع إليهم وجهه الملوّث بالدم .. من تلك اللحظة اضطربت رؤية سارة ولم تبلغ مستوى الفهم لتصرفه .. هو في عمرها أو يكبرها بعام أو عامين .. ولقد كان بالنسبة إليها واحدا من عشرات الشبان الذين ترى في الحيّ إلا أنه فجأة انفصل عنهم في مخيلتها وصار يثيرها بشكل عنيف .. لم يكن حتى لينظر إليها!!

- كم أنت محير

- عندما أتخيل أنّه كان يمكن أن يعترضك الكابتان ك ..!

ووضعت إصبعها على شفيتها تطلب أن يصمت وبدأت تتسمّع أصواتا بعيدة.

- لا شك أنّه الكابتان ك استبطاني ..

وأخذت يديه بين يديها وهي تتأمّل وجهه وقالت:

- يجب أن تهرب .. سأتدبّر الأمر .. سأخلق حكاية ما ..

- سارة؟

- ماذا أيضا؟ أسرع .. أوكد لك أنك ستندم على هذا النأي ..

وجذبها إليه بشدة وكأنّ الخطر المقرب بعث فيه النشوة الضائعة .. وسكنت سارة إليه

لحظة ثم تخلصت من أحضانه وابتعدت عنه وهي تصيح بغیظ:

- أسرع .. أسرع برّبك ..

واندفع هو في الاتجاه المقابل يجري في الظلام حتّى إذا ما بلغ جذع الشجرة الخاوي رقد

وراءه وتماوت .. وبلغته أصوات متداخلة ونباح كلاب ثم صوت قوي يسأل:

- أين كنت أيتها الملعوننة؟ ألا يكفي أن تطلقى الكلاب؟
- كنت أقصد إراحتك .. لم أودّ أن أوقظك ..

- هل يجب أن أشكرك على هذا ..؟

- وافر على نفسك هذا000

- وقحة0كلكم سواء000أختك00أبوك00كلكم سواء 00وماذا وجدت؟

- لا شيء ..العجوز)صالحة (تبحث عن أغصان الشجر اللطهي0لقد كاد بوبي أن يفتك
بها00

- كان يجب عليه أن يفعل .. لقد فسد وقد رافقتك مرتين فقط ..

وبعد صمت وجيز سمع الصوت الخشن يعود إلى الهدير:

- هيا بنا ..العجوز)صالحة .. (هذه معارفك .. أحذرك لآخر مرة من أن تقحمي أنفك في ما

لا يهملك ..وسأبدأ بعاقبك، لن تذهبي إلى الحي مرة أخرى ..

وتلاشى آخر صدى نباح الكلاب وشفروت الصغير ملتصق بالجذع يحسّ هبوط الحرارة

ولا يبدي حراكا ..

تونس في 21 ديسمبر 1966

عزيزي شفروت،

جاءتني سارة البارحة على السفح .. لأنه أصبح من الخطر أن أجازف ثانية بالاقتراب من
البناية .. آه لو درى الكابتان ك مدى حقدى على قذارة مثله .. إن حقدى عليه تحول الى مزيد
من التعلق بسارة .. الجنون .. كان معصم سارة داميا .. لقد صارت كلاب الكابتان ك .
وضربت بوبي .. لا أدري لماذا .. أحببت حمرة يديها الداميتين حتى عشقت الدم .. فخذها
أيضا كانت به خدوش عديدة .. قبلتها شديدا وأنا أرى هذه الخدوش في جسدها، رغما
عنها .. وعندما حاولت الهرب جريت وراءها بجهد، حتى تمكنت من التشبث بفستانها
وتدحرجنا على السفح كالمجنونين .. لقد غضبت سارة أشد الغضب .. كانت تصيح، أنت
تخفني .. وكنت أصيح، سارة أنت ربي .. واضطرت أن أتخلى عن ثيابها لأنني تأكدت أنها
حقا غاضبة (لقد داخلت عيناها سجرة قوية حتى تخيلتهما قد استحالتا بركتين من الدم، أنت
تؤلمني! فقلت لها: كيف يمكن أن أولمك يا سارة..؟) وعندها استسلمت لي فشعرت أن سعادتني
بذلك قد أمحت في لمح البصر .. وبعد ذلك أخذ لون معصمها الملوث ببقايا الدم لونه الحقيقي،
وأمحت النشوة ولم يبق من صورة التجيئ إليها فتتحول مثار اندفاع .. واجتاحني برد فارس
ينسخ اعتدال هذه الليلة .. وقد لمحت سارة ملامح هذا التحول في وجهي فاقتربت مني لا تنبس
بكلمة وبقينا صامتين .. ورغم البرد العميق في نفسي كنت أنظر إليها براحة .. إنها الكائن
الوحيد أجد في عينيه راحتي ساعة أضعف فلا أقوى عن الثورة والموت ..
وهي الوحيدة التي ألقى في نفسي اطمئنانا كنت أحس أنني وجدت من دونه، انه غريب
عن طبعي .. لقد أرجعتني إلى نفسي .. ولم تنطق بكلمة واحدة حتى أجهضت السماء
قمرا مشبوها من وراء الجبل .. فوضعت يدي على كتفها وجلسنا معا على الجذع الخاوي
وسط الأعشاب والصخور .. كنت أحس بالأمن يتسرّب إلى عظامي مع البرد .. وفجأة
ارتعشت وسحبت يدي ثم احتضنت سارة من جديد وبقوة كأنما كنت أودّ التأكد من وجودها
بقربي .. وحاولت أن أفهم سبب ردّة الفعل الغريزية تلك فلم أفهم .. ثمّ أحسست بقلق متزايد 0

لاشك كأنني تخيلت سارة قد اختفت من أفقي 0أي أفق يمكن أن يظللني بعد سارة؟ إن أفقي هو أنت ..وضممتها بعنف ثم تركتها وتشبّثت بفستانها وبدأت أقبله وقد ابتلت عينايا في الصمت الساحق0وبلغني صوت سارة تجهش بالبكاء ..لقد نزلت علي اللعنة من اللحظة التي تخيلت فيها نفسي فيها من دون سارة فلم أدر مصدر هذا الحدس الكئيب، ولم أحسّ أبدا بألم أعمق ممّا أحسست في تلك اللحظة .حتى سارة بدت لي باردة تتلج أعصابي 0ان حياتي حياة حدسيّ وهذا الحدس قادر على تلوين ما حولي باللون المظلم الذي بدأ يجتاح قلبي بفعل هذا الوهم الطارئ.

كان لقاءنا قصيرا هذه الليلة، نصفه حياة والنصف الآخر يكتفه كفن من الحدس الأليم 00 وبقيت مدّة وقد انطلقت سارة نحو البناية أتسع خطواتها وصوت الحجارة المتدحرجة ثم بلغني صدى نباح الكلاب في البعيد فعلمت أنّها وصلت سالمة وقادتني الطريق المتعثرة نحو الحيّ السابح في الظلام.

(16)

كانوا متجمّعين أمام الحانوت يلعبون الورق ويتصايحون حين وضع حمّادي يده على الأوراق وطلب من اللاعبين التوقف عن اللعب ثم قام فوقف أمام سعاد ابنة المؤدبّ

- إيه يا حلوة .. ما هذه الثياب الزاهية .. ما هذا القَدَّ !!

- سأقول هذا لأبي.

- حقا؟ وسيغضب المؤدّب وهو يسمع ذلك!

- وقح .. اتركني!

فتنحّى عن طريقها قليلا وهو يهزّها ويحطّها بعينيه في تلدّد ساذج

- سأخطبك من أبيك ..

- أنت؟ ها .. ها ..

- أنا .. ها .. ها .. تودينّ وزيرا؟ ليس عندنا وزراء في هذا الحي ..

- سوف لن أقبل.

- فأختطفك .. إن بيني وبين أبيك حكاية طريفة .. سليه عن حكاية تلك الليلة .. لا بل اسألي

علي وصالح ..

وطاف بعينيه في الجماعة الملتقّة حول ملعب الورق يتابعون في تناؤب هذا المشهد.

- ألا فلتحكوا لها أيّها الرفاق قصّة تلك الليلة .. الفتاة بنت عائلة لا تقوى على السؤال

بمفردها.

- قدر .. ما كان لك أن تغادر الإصلاحية ..

- أبصري ما تقولين يا فتاتي .. أنا مواطن صالح .. الدليل أنني لا أعاقبك على وقاحتك.

وأحسّت سعاد بتهديده فابتعدت عنه في سرعة (ولما شعرت أنها في وضع يمكنها من

الهرب صاحت فيه:

- قدر، قدر

قهقهه في وجهها

- آه، آه، كأنك بلغت شطّ السلامة .. سوف لن أقبض عليك الآن ..

ولكنه تظاهر بالجري وراءها فاندفعت تجري بكل قواها .وعندما التفتت رأته في مكانه لم

يتحرك وبلغتها قهقهة اللاعبين.

- يا ملعون

- أحبك

وجاءه صوتها متلاشياً

- أنت تستحق المشنقة ..

فرجع يديه في الهواء علامة على الاستسلام وسار نحو الجماعة

- يا لها من بغيّ جميلة ..إنني أحبها ..

- تحب سعاد، تحب سارة !

- ابلع .. لقد حذرتك من الحديث عن سارة.

وتفقد الأوراق ثم رفع رأسه وسأل

- الأوراق كما هي ؟

- كما هي

- سأخطبها من المؤدب يوسف

- هل أتكلم ؟

- وما الذي يمنعك من الكلام ؟

- سوف لن ترضى بك

- ولماذا أيها الذكيّ ؟ سأفنع أباها . الفتاة لا يجب أن تتكلم أمام أبيها ..

- وهل تظن أن المؤدب نسي سريعاً سبك المقذع ؟ زيادة على 00

- على ماذا ؟ تكلم أو اصمت مرة واحدة 00

- الإصلاحية .. السجن 00البطالة

- الإصلاحية .. الإصلاحية .. وماذا أيضاً ؟ اسمع أقول لك، أنا لست مثلك 0 أنا لا أحس

بنقص من الإصلاحية 00 نعم سرقت 00 ولكن لماذا ؟ لأنني كنت صغيراً .. وأفتعنتني أمي أن

الدولة يجب أن تتكفل بتكوينني .. لم أقرر شيئاً أنا .. أمي لا تملك شيئاً وأنا بحاجة إلى الطعام

والسجائر .. ماذا أفعل ؟ أظير إلى الرب يمنحني ما أعيش به ؟ كان لابدّ من أن أقطع هذه

الأسلاك التلغرافية فيتدخل البوليس فأضمن سجائري ..

- أعرف يا حمادي .. هل تظنّ أنني أحاكمك من جديد ؟ أنا مثلك وصالح كذلك . ولكن المشكلة

غير هذه .. ألا تعرف الناس هنا وفي كل مكان ؟ الموظف خير من العامل والعامل خير من

البطال والبطال «العاقل» «خير من البطال تخرج من الإصلاحية

- أعرّف ..

قالها بتعب وقد بردت اللعبة وحل محلّ عبثه نوع من الشعور المرير بالذات

- ومع ذلك فأنا أشعر أنني لا أستحق هذا المصير .. ماذا فعلت ؟

وصمت الجميع نزولا عند تدهور حالته النفسية فابتسم بعد مدة وهو يحاول استعادة عبثه

- في المشاجرة الماضية كان الشيخ من صفي .. لأول مرة .. ويعلم الله لماذا .. هذا الرجل

يعيد دائما على الناس تاريخ نضاله .. لقد قطع أسلاك التلغرافية هو بدوره تماما كما فعلت أنا

بعد سنين .. وأنتم ترون كيف يحكم الحي الآن نتيجة هذا العمل .. آه لو تقدّم يوم مولدي !..

وعمّ الضحك الحاضرين مرة واحدة

- حمّادي شيخ .. آه .. آه .. هذه حلوة ..

- ولم لا ؟ جبة بيضاء وأنا أتفرعن هنا عليكم جميعا .. حتى إذا رفع أحدهم رأسه صحت فيه

والبلد معي، ورائي نضال ، ورائي قطع متر من الأسلاك التلغرافية ..

وأخذه نوع من الذهول عن واقعه فقام وبدأ يدور بالجماعة مقلدا حركات الشيخ وصوته

- وأتقدم إلى المؤدب يوسف بكل ما تحمل أسطورتني .. ويفهمني وأفهمه .. واتفق على ألا

نتحدّث صراحة ولو مرة فيصنع لي نسبا، أيّ نسب، إغريقي أو فرعوني ، المهم ألا أكون

من هنا .. وينادي الرجل ابنته فتقف بين يديّ محمّرة الوجنتين ويأخذ أبوها يدها ليذهب

خجلها) : هذا الرجل يطلب يدك .. هذا الرجل ليس مجرد مثقف امتحن بأن ولد بعد الاستقلال

.. ليست وظيفته نتيجة دراسة أو شبه دراسة (.. وتسقط الفتاة الفقيرة الحالمة في يدي رجل

في سنّ أبيها فلا تكاد بعد مدة قصيرة تشعر بما كانت ولا بما أصبحت عليه ..

ووقف بتحقيق رغبته في الخيال وطاف ببصره فيهم كمن يودّ أن يقرأ في عيونهم

- أنا أمامكم .. حمّادي الإصلاحية ..

وبصق

- لن أسمح لأحد بعد الآن بأن يذكرني بالإصلاحية .. أكسر أسنانه.

- هل أتكلّم ؟

- ماذا أيضا ؟

- إذا خطبت سعاد فستسمع سارة

فانفضّ عليه حمّادي وهزّه

- ماذا كنت أقول لك؟ تكلم ..ماذا كنت أقول لك؟

- قلت لي لا تذكر هذا الاسم

- وماذا تفعل الآن؟

- لقد قلت لي تكلم ..

- ليس في هذا.

وتركه ..وبعد صمت

- تكلم

- في ما أريد؟

- تكلم.

- أنا صديقك، وأنت تعرف ذلك ..الدليل أنني لم أحرّك ساكنا وأنت تخنقني ..

- دعك من هذا ..أنت تعرف أنك تخسر في الأمر لو حرّكت هذا الساكن

- حسنا ..على كل أنت تعرف أنني عندما أتحدّث عن سارة لا أقصد شيئاً .

كلنا نحبها 00ولكن اهتمامك المفاجئ بسعاد أثار انتباهي .أفليس لمقدم شفروت الصغير دخل

في الأمر؟

فنهض حمّادي وحوّل نظره عن الجماعة ولم يحر جواباً .

- إن أردت أن أكسر أسنانه مكانك فعلت ..

فعاد حمّادي إلى الجلوس من جديد وهو يقاطعه

- لا ..لن تفعل هذا ..أنا أمنع أيّاً كان في هذا الحي أن يتعرّض لشفروت من جديد .وبعد

تخمين

- لقد أخطأت إزاءه مرتين .وأودّ من كل قلبي أن أكفر عن غلطتي ..سارة ذكيّة وتعرف ..

لا تضحكا مني ..أعرف يا صالح أنك لم تردّ الفعل لأنك تحبّني .أنا أتذكّر عراك الإصلاحية

وقوّة لكماتك ..عندما أذكر أنني تعرضت لشفروت الصغير لمجرد أن ذلك الخمار الحقير

وعدني بعدد من زجاجات الجعة !!أنا حمّادي ، قيمتي ثمن عدد من قوارير الجعة !لكأني

فعلت ذلك لسبب آخر ..لكأنّ كنت أحدس أن سيكون لشفروت مكان في حياة سارة ..لقد

رأيتها تعترضه بعد الاستفزاز ..كانت ساخرة متحدية ..وقد شعرت إذاك أنّها ما كانت لتسخر منه لو لم يثر اهتمامها ..سارة لا تسخر من أيّ كان ..
- أثار سخريتها لأنها رأته يرتعش ..لأنها تعرف أنك الأقوى ..
- أنت لا تعرف سارة إذن ..سارة ليست ككل البنات هنا.
وضحك بعصبية

- كنت أظن أن تحديّ شفروت الصغير وغيره خير عامل على الإيمان بي ..وكنت من الغباء بحيث أتعنّف حتى معها ..لقد كنت سجين ماضي العنيف ..لا تعبير لدي غير العنف الجسدي ..بينما شفروت الصغير ..آه يا ربي ..سوف أكسر أسنان بوسنّ في يوم من الأيام، أنا على يقين من ذلك ..

ورأى حمّادي)صالح (يغمز صاحبه فالتفت فرأى سعاد تغافله للمرور ..ولكن هذه المرّة لم يبد عليه أي اهتمام بها واكتفى بالابتسام

- لا تخافي ..أذهبي حيث تشائين فلن أقلقك بعد الآن ..

ووقفت على بعد مترين تنظر إليه في غير اقتناع.

- هيا يا فتاتي ..أنت لا تصدقيني؟ ورأس أمي لن امسكّ بعد الآن بسوء.

وابتعد عن الطريق وهو ينادي الآخرين وعندما التفت وجد سعاد واقفة في مكانها وكأنها

لم تتقبل كلامه ولهجته بفرح وصدمة أن تسأل

- لماذا؟ لأنني قلت لك يا قدر؟

فاقترب منها وقد ذابت وقاحتها المعهودة وهمس

- لا ..ذاك لا يهمني ..إنّه الحقيقة ..

- أعتذر ..

- لماذا تعتذرين ..؟ نحن تعودنا في الحي على السباب حتى أصبح بدلا عن السلام.

فاقتربت منه أكثر وقد ازدادت تعجّباً من تحوّل السريع التام

- إذن، فلماذا؟

- لألف سبب ..الإصلاحية ..أمي ..لقد ذكّرني صالح بأشياء كنت أتناساها ..ولا أدري

كيف أصبحت فجأة قادرا على التأثير ..في لحظة أحسست بتفاهة تصرّفني منذ سنين.

وبلغه صوتها:

- إذا كنت تحبني ..

فأطرق على غير عادته

- ليس صحيحا ما شتمتك به .. هو لا يعبر عن شعوري ..

- آه يا سعاد، أنت لا تفهميني ..

وأضاف وهو يميل عنها

- أنا لا أحبك .. لا يمكن أن أحب أحداً

وتخيلها وراء ظهره وقد جمدت في مكانها .هي لا تشك أبداً أن في إمكانه أن يشق طريقه

في الحياة ولو بقوة عضلاته .ولم تجد لتحوّله المفاجئ أي تفسير واضح، فهل يكون حمّادي

أيضا قد أصيب بداء شفروت الكبير ؟

ووضع الشاب يديه على كتفي صاحبيه ومشوا قليلا وهو يتوسّطهما ثم صاح وكأنما أفاق

من غفوة :

- هيا بنا إلى الحانة نسكر حتى الموت ..أنا أدفع ..لقد اشتقت لمنظر بوسنّ الحقير ..

وفجأة انطلقوا جميعا والفتاة وراءهم تنظر في اتجاه شمس هابطة رديئة تلوثها السحب في

أغنية رديئة :

هات لي بغيا وعدني في الصباح

مات في نوعي نشيد الطامحين

ورجاني ما في نفسي من بعيد

أن أكون الرذل الغض وشيئا من برود

حين كان الطلّ يسعى لوروده

يسكب الدمع ثناء لخدوده

ويزيد الخوف في قلب الغيور

كنت طفلا

أفهموني الليل ردع لضياء لا يطاق

وسماع الرعد وحي من غرابة

وحروب الناس قتل لفراغ هائل
وهناء الروح أمّ كالورود
وإذا بي بعد أيام وأيام صغيرة
سلبت من حاضري الحلم الكبير
ودعتني غادر الأمس وغيثان البعيد
أزرع النور وأسهو عن تراب لا يفيد
وأريد الزرع بعثا لحياة هائلة
فتقول النفس همسا
هات لي بغيا وعدني في الصباح

